مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة



بناء الشخصية ومواجهة التحديات

تأليف : حسن موسى الصفار

القياس: ١٤،٥ x ٢١،٥ عدد الصفحات: ١٩٢

بناء الشخصية
ومواجهة التحديات

حسن موسى الصفار

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات أو أفكار يتبناها مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة اهتماماته وأولوياته

الطبعة الثالثة

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

من أهداف مركز عين :

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامي، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعي بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفي، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا ممانع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهي تحاول التأسيس من منطلقات اسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

مقدمة

منح الله تعالى الإنسـان كل مقومات الكمال والتقدم، لتتجلى من خلاله عظمة خالقـه، وليؤدي الدور المناط به في الحياة، كخليفة لله، ومسؤول عن عمارة الأرض.

وهبـه قوة إدراك وتفكير، يعرف بها أنظمة الكون وقوانين الوجود، ويكتشف كنوز الطبيعة وإمكانات الحركة والفعل.

وذلـل لـه مناكـب الأرض، وفتح أمامه آفـاق السـماء، وأخضع له الأفلاك والأملاك الذين خروا له سـجداً، استجابة لأمره تعالى: ﴿فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْـتُ فِيهِ مِنْ رُوحِـي فَقَعُوا لَهُ سَـاجِدِينَ﴾[1]، وزوده بلياقة جسـمية رائعـة، تجتمع فيهـا قدرات الحـواس والأعضـاء، مع جمال المنظر وبديع الشكل.

وقد عبر القرآن الكريم عن كل هذا التميز الإنساني بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١]، فلو كان هناك مواصفات أرقى، ومقومات أعلى، لما ادّخرها الله تعالى لموجود آخر غير الإنسان، فهو أفضل تعبير، وأحسن مثل عن عظمة الخالق وقدرته.

لكن مشكلة هذا الإنسان تكمن في غفلته عن مقومات كماله، وإهماله لنقاط قوة وجوده، مما يفقده التمتع بميزات موقعيته العالية الرفيعة، وينحدر به إلى قاع الضعف والهوان. ليصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[٢].

وبين الارتقاء إلى موقعية أحسن تقويم، والانحطاط اليقعر أسفل سافلين، هناك مضمار سباق، ومعترك صراع، وميدان سعي وكفاح، تتفاوت فيه درجات الصعود ودركات الهبوط.

إننا نقرأ في سجلات التاريخ، ونرى في الواقع المعاصر، تفاوت الدرجات بين بني البشر، كأفراد ومجتمعات، فهناك العظماء المبدعون، ممن أحرزوا التقدم في مجالات الكمال المختلفة، معنوية مادية، وهناك البسطاء المتخلفون، الذين يظلون يراوحون مكانهم، دون خطوة تقدم، أو إنجاز يذكر.

وسر التفاوت بين الناس مخبوء في أعماقهم، نابع من دواخلهم، يتمثل في إرادة التفكير وعزيمة الفعل، فواقع الإنسان يصنعه قراره

(١) سورة التين: الآية ٤.
(٢) سورة التين: الآية ٥.

وإرادتـه يقول تعالى: ﴿لِمَنْ شَـاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَـدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ* كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ﴾[1]، صحيـح أن للظـروف الخارجيـة والعوامـل المحيطـة بالانسـان، تأثيراً على حالـه وواقعه، لكنه تأثيـر محدود، لا يلغي مسـؤولية الإنسـان، ولا يجرده من إرادته وقدرتـه على التحدي والمقاومة.

وأهم ما يحتاجه الإنسان هو توجهه لذاته، واستكشافه لمواهبه، وسعيه لتفعيل طاقاته، وإشهاره لسلاح إرادته في مواجهة العوائق والتحديات.

إنه المسؤول عن تخلفه، وبيده مفاتيح تقدمه، فرداً ومجتمعاً.

وهـذه الصفحـات المتواضعـة بيـن يـدي القـارئ الكريـم، تضم مجموعـة من المقـالات التربوية، الهادفـة إلى توجيه الإنسـان لذاته، لتنمية قدراتها، ومعالجة ثغراتها، حتى يبني شخصيته الكفوءة الجديرة بالتقدم في آفاق الكمال.

إنها رؤى ومعالجات في بناء الشخصية وتنمية الذات،وفي منهجية التعامـل مـع مشـاكل الحيـاة وتحدياتها، أرجـو أن تكون لـي موعظة وذكرى، وأن يجد فيها الآخرون هدى ورشاد. والله خير موفق ومعين.

حسن الصفار

١٢/ ٥/ ١٤٢٤هـ

(١) سورة المدثر: الآيتان ٣٧-٣٨.

الفصل الأول

في بناء الشخصية

- التعبير عن الذات وتوكيد الشخصية
- المبادرة واستباق الخيرات
- نحو استثمار أفضل لوقت الفراغ
- بناتنا في طريق العلم
- الاستهلاك وعادات الإسراف

التعبير عن الذات وتوكيد الشخصية

يصنف علماء النفس أنماط الشخصية الإنسانية إلى ثلاثة أصناف:

١. الشخصية الانطوائية.

٢. الشخصية النرجسية.

٣. الشخصية التوكيدية.

أولاً- الشخصية الانطوائية:

والانطوائية صفة تطلق في علم النفس، على وجود الرغبة والميل للانعزال والانطواء عن الآخرين، بحيث يتركز انتباه الفرد إلى ذاته وداخله، ويعزف عن التفاعل مع بيئته الاجتماعية، وهي حالة غير صحية، تحصل بسبب الاستغراق المبالغ فيه ببعض الهموم والمشاكل الذاتية، والانطواء يفاقم هذه الحالة ويضاعفها، مما يهدد بالإصابة بالوساوس ـ مثلاًـ والاضطرابات النفسجسمية. وقد يكون الميل

للعزلة والانطواء ناشئاً من الشعور بضعف الثقة في النجاح والتعاطي مع الآخرين.

إن انفتاح الإنسان على الآخرين وعلاقاته معهم، يساعده كثيراً في تجاوز بعض المشاكل الداخلية التي يعاني منها، بخروجه من دائرة الاستغراق فيها، والتخفيف من ضغوطها. كما تتطور بذلك قدرات الإنسان ومواهبه، ويجد من خلالها السبل والوسائل لمعالجة المشاكل، وتوفير المتطلبات.

والانطوائية لها درجات متفاوتة، أدناها أن يقتصر انفتاح الإنسان على دائرة اجتماعية خاصة، كأقربائه أو أبناء محلته، بينما يتردد ويتهرب عن العلاقة مع غيرهم.

وقد تصاب بعض الجماعات بحالة انطواء تجاه الجماعات الأخرى، فيغلب على أبنائها الميل للعزلة، والابتعاد عن الآخر المختلف دينياً أو عرقياً، فيتقوقعون ضمن مناطق خاصة بهم، وتقتصر صداقاتهم وعلاقاتهم مع أفراد مجتمعهم، ويعزفون عن التعامل والتعاطي خارج إطارهم.

ويرى أحدهم نفسه غريباً خارج منطقته وإن كان ضمن الوطن الواحد، فيكون بقاؤه في المناطق الأخرى بحدود الحاجة والاضطرار، وقد يفوّت على نفسه فرصاً للتقدم الوظيفي، أو النمو الاقتصادي، إذا كان ذلك في غير منطقته، وقلّ أن يبادر المقيمون منهم في مناطق

أخرى إلى تكوين علاقات وصداقات مع البيئة الاجتماعية فيها، بل يشكلون لهم تجمعهم الخاص، مما يكرس لديهم حالة الانطواء والانغلاق.

وحتى على مستوى الجامعات والمؤسسات العامة، يميل هؤلاء إلى العلاقة مع بعضهم فقط.

بالطبع لا تصاب جماعة بهذه الحالة إلاّ نتيجة عوامل وأسباب، من أبرزها اضطراب العلاقة بينها وبين جماعات أخرى أكثر قوة، فيدفعها الإحساس بالضعف، والحفاظ على الهوية، إلى اللجوء لحالة الانطواء والانغلاق، ثم تنشأ ثقافة تكرّس ذلك الواقع، عبر تشريعات دينية، وأعراف وتقاليد اجتماعية.

إنها حالة غير سويّة على مستوى الفرد والجماعة، تنتج خللاً داخلياً، وتعرقل النمو، وتمنع فرص التقدم، فلا بد من معالجة أسبابها، والسعي لتجاوزها.

ثانياً ـ الشخصية النرجسية:

المبالغة في حب الذات، قد تدفع صاحبها لبعض السلوكيات المجحفة بحقوق الآخرين، كالاستئثار عليهم، وإبراز شخصيته بطريقة مميزة، على حساب شخصياتهم، وتضخيم قدراته ودوره، والرغبة في إظهار تفوقه، حيث يطربه تمجيد ذاته، وينتشي بمدح الآخرين له، ويتوقع من الآخرين أن يتعاملوا معه باعتباره متميزاً،

ويتحسّس تجاه من لا يبدي نحوه اهتماماً خاصاً.

بـل قـد يزعجه ظهـور الآخريـن وتقدمهـم، ويثير في نفسـه الغيرة والحسـد، ويحـاول التقليـل مـن شـأنهم، حتـى لا يبدوا في مسـتوى المنافسة والمزاحمة لموقعيته ومكانته.

ويرفض هذا النوع من الأشخاص أي نقد أو ملاحظة، ويعتبر ذلك تجريحاً وانتقاصاً من مقامه.

يطلق علماء النفس على هذه الشخصية مسمى (النرجسية). وعادة ما تكون هذه الشـخصية ثقيلـة الظل على الآخريـن، وتواجه صاحبها كثيـر من التوترات في علاقاتـه الاجتماعية، ترتد على نفسـيته بالآلام والجراحات.

وكما على مسـتوى الأفراد، كذلك على مسـتوى الجماعات، فقد تصـاب بعضها بمثل هذه الحالة، حين تسـود أجواءها مشـاعر التفوق والتعالـي على سـائر الجماعات فـي محيطها، لانتماء عرقـي أو ديني أو قبلـي، ومـا قد تنطـوي عليه وتدفـع إليه هذه المشـاعر، من مواقف وممارسات سلبية تجاه الآخرين.

إن الذات النرجسـية الجماعية تعشـش في ظلهـا الثغرات، ونقاط الضعـف، نتيجـة الرضا عن الذات، ورفض النقـد واعتباره عدواناً من الآخر، كما تفسد أرضية التعايش والانسجام بين الجماعة والجماعات الأخرى، وقد تؤسس لحالة من القطيعة والاحتراب.

ويعكس أدب الحماسة والفخر في العصر الجاهلي، صوراً عن هذه الذات النرجسية، كقصيدة عمرو بن كلثوم التي تحكي مشاعر قبيلته تغلب، وفيها يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ... تخر له الجبابرة ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا

ونجد في مرويات بعض الطوائف الإسلامية، ما يغذي الروح النرجسية بين أبنائها، حيث توحي لهم بأن مجرد انتمائهم المذهبي كافٍ لأفضليتهم على الآخرين، وضمان الجنة لهم دون غيرهم، وإن قل عملهم الصالح أو سلكوا طريق المعاصي، بينما يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[1].

ثالثاً ـ الشخصية التوكيدية:

يعتبر مفهوم التوكيدية من المفاهيم الحديثة في مجال علم النفس، ويمكن أن نستخلص من أبحاث العلماء المختصين التعريف التالي: توكيد الذات يعني شعور الفرد بالثقة بنفسه، وسعيه للتعبير عن ذاته في

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

الوسط الذي يعيش فيه، والعمل على حماية مصالحه وحقوقه.

إن الثقة بالنفس هي مفتاح تفجير المواهب والكفاءات، وبدونها تبقى قدرات الإنسان كامنة مشلولة، حيث ينطوي كل إنسان على قدرات هائلة، لكنه لا يلتفت إليها، أو يشك في وجودها، ويتردد في استخدامها، بسبب ضعف الثقة بالنفس.

كما أن نجاح الإنسان في بناء علاقات سليمة متكافئة مع الآخرين، يعتمد على ثقته بنفسه.

والهروب عن التعامل مع الآخرين، أو الخوف من الارتباط بهم، أو الفشل في إدارة العلاقة معهم، أو انسحاق الشخصية أمامهم، كل ذلك من مظاهر وأعراض ضعف الثقة بالنفس.

وحينما يواجه الإنسان مصاعب الحياة ومشاكلها في الميادين المختلفة، فإن أهم سلاح يتكئ عليه في المواجهة، هو الثقة بالنفس، وبمقدار توفرها تكون درجة صموده ومقاومته.

من هنا تصبح الثقة بالنفس أولى ركائز الشخصية التوكيدية.

أما الركيزة الثانية فهي التعبير عن الذات بأن يمتلك شجاعة الإفصاح عن مشاعره السلبية والإيجابية، بالطريقة المناسبة، وعند انخفاض مستوى التوكيدية يتردد الإنسان ويتهيب من إبداء مشاعره، بسبب حالة من الخوف أو الخجل.. إن البعض من الناس يصعب عليه التعبير عن رضاه أو انزعاجه تجاه الآخرين، بينما يعيش احتقاناً

داخلياً بتلك الأحاسيس والمشاعر، والأمر الأهم هو شجاعة إبداء الرأي التي يفتقدها ضعاف الشخصية، بينما يتحلى بها ذوو الشخصية التوكيدية.

والركيزة الثالثة في التوكيدية، السعي لحماية الحقوق والمصالح، التي قد تتعرض للمصادرة والانتقاص من قبل المعتدين والطامعين، ولا يصونها ويحفظها إلا حرص الإنسان عليها ودفاعه عنها.

التعبير عن المشاعر:

المشاعر والأحاسيس هي انعكاس صور الأحداث والأشخاص على لوحة نفس الإنسان، حيث يواجه ما يسره وما يحزنه، ومن يرتاح إليه ومن يزعجه، وما يرضيه وما يغضبه.

هذه الانطباعات تترجمها المشاعر والأحاسيس، التي تظهر على قسمات وجه الإنسان، وعبر أحاديثه وكلامه.

وفي الحالة السوّية يفصح الإنسان عن مشاعره تجاه الأشياء والأحداث، مما يجعله أكثر حيوية وتفاعلاً مع الحياة، ويجدد نشاطه النفسي والعاطفي، وينظّم علاقته بما حوله.

وقد يكبت الإنسان مشاعره ويقمعها، مما يحدث له إيذاءً نفسياً، ويضعف تفاعله مع الواقع المحيط به، وبمرور الزمن يصاب بتبّلد الأحاسيس وجفاف المشاعر.

ولعل من معاني قسوة القلب الذي تحذر منه النصوص الدينية، هو كسل مستوى الأداء العاطفي، وجمود المشاعر والأحاسيس الإنسانية، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[1]. إن التفاعل العاطفي هو ميزة إنسانية يختلف بها عن الجمادات التي لا مشاعر لها، فإذا تجمّدت مشاعر الإنسان، تساوى مع الجمادات، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2].

لذلك من المحبّذ أن يعبر الإنسان للآخرين عن مشاعره الإيجابية تجاههم، مما ينشّط أداءه العاطفي، ويسعد الآخرين، ويقوي علاقته بهم.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قبّل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة»[3].

وفي العلاقة مع الزوجة ورد عنه ﷺ: «قول الرجل لزوجته إني أحبك لا يذهب من قلبها أبداً»[4].

---

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج١، الطبعة الخامسة ١٩٨٥، حديث رقم ١٨٤٠، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٤٢٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٧٤.
(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج٢١، حديث رقم ٢٧٦٢٣، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث)، ص٤٧٥.
(٤) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج٥، الطبعة الثالثة المصححة ١٩٨٥م، (بيروت: دار الأضواء)، ص٥٦٩.

وفي العلاقة مع الآخرين روي عنه ﷺ: «إذا أحب أحدكم صاحبه أو أخاه فليعلمه، فإنه أبقى في الألفة وأثبت في المودة»[١].

ويأتي في هذا السياق الحث على إبداء الشكر والاحترام للمحسنين: جاء في الحديث عنه ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٢].

وعند وفاة ابنه إبراهيم عبر رسول الله ﷺ عن مشاعر حزنه أمام المسلمين وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٣].

فإبداء المشاعر له وظيفة إيجابية في حياة الإنسان، وكبتها وقمعها حالة غير سويّة لها مضاعفات سلبية، وقد تفرض الظروف الخارجية على الإنسان ذلك، لكن البعض من الناس يمنعهم من إبداء أحاسيسهم، انخفاض المستوى التوكيدي في شخصياتهم، وضعف ثقتهم بذواتهم، وهذا ما ينبغي أن يعالج بالتثقيف والتوجيه والممارسة العملية.

---

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج٩، الطبعة الخامسة ١٩٨٥، حديث رقم ٢٤٧٤٧، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٢٥.
(٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٢١٦٣٧، ص٣١٣.
(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج١، ص٣١٧، حديث رقم ١٣٠٣.

التعبير عن الرأي:

حركة فكر الإنسان، وتأمله فيما حوله، وخلفيته المعلوماتية، تنتج لديه أراء وأفكاراً، فيها ما يكون صائباً مفيداً، وفيها ما يخالف الصواب، ويفتقد النضج.

وتطور ساحة المعرفة الإنسانية إنما يكون بتداول الآراء وتلاقحها، ولو انطوى كل إنسان على رأيه وفكرته، لما تقدمت حياة البشر خطوة واحدة في أي ميدان من الميادين.

لذلك يمتن الله تعالى على الإنسان بمنحه القدرة على البيان والتعبير يقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1].

إن التعبير عن الرأي ينشّط حركة الفكر عند الإنسان، ويشجعه على المزيد من العطاء، يقول الإمام علي عليه السلام: «العلم يزكو على الإنفاق»[2]. كما يساعد في بلورة الرأي وإنضاجه، وتبيّن موقعه من الصحة والخطأ. ويشكل إسهاماً وإثراءً لساحة المعرفة. وتقويماً للأوضاع الاجتماعية.

وقد أصبح التعبير عن الرأي من أهم مقاييس تقدم المجتمعات، حيث تعاني المجتمعات المتخلفة قيوداً على حرية التعبير عن الرأي، ويهمنا في هذا البحث ما يرتبط بالجانب الذاتي، حيث يمارس

(١) سورة الرحمن: الآية ٣-٤.

(٢) الشريف الرضي: محمد بن الحسين، نهج البلاغة، حكمة رقم ١٤٧.

الإنسـان على نفسه قمعاً ذاتياً، ويصادر حقه في التعبير عن رأيه، حذراً من مخاوف وهمية، وانتقاصاً من قدراته، وتشكيكاً في قيمة آرائه.

ويحدث مثلاً أن تُتداول الآراء في شأن من الشؤون، ويبدو للإنسان فيـه رأي، لكنـه يتردد في طرحـه، حتى إذا طرحه آخرون، واستحسـنه الجميع، لام نفسه على تردده وتوقفه عن إبداء رأيه.

التربية التوكيدية:

التنشئة الأسـرية لها الدور الأسـاس في صياغة شخصية الإنسان، وتحديـد معالمهـا وتوجهاتهـا، لذلك يلحـظ علماء النفـس تأثير دور التربية العائلية على مستوى توكيد الذات، ارتفاعاً وانخفاضاً.

فالتنشـئة السـليمة يتخـرج منهـا أقوياء الشـخصية، مـن تتوفر لهم درجـة عاليـة من التوكيديـة، بينما التربيـة الخطأ تنتـج عناصر مهزوزة الشخصية، تفتقد الثقة بذاتها، وقدرة التوكيد.

إن احترام الطفل وتشجيعه على التعبير عن مشاعره وآرائه، وتدريبه على مواجهة المواقف، وعدم الهروب منها، والتواري خلف مساعدة والديه دائماً، هو الذي ينمي توكيد الذات وقوة الشخصية عنده.

أما تحقير الطفل وعدم الاعتناء بمشاعره وآرائه، وتعويده الاتكالية علـى والديـه فـي مواجهـة المشـاكل، فذلـك مـا يضعف شـخصيته، ويخفض درجة التوكيدية لديه.

لذلك تنصح التعاليم الدينية، وأبحاث علماء التربية، بإتاحة الفرصة للطفل لكي يعبر عن ذاته من خلال اللعب والمرح، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان عنده صبيٌّ فليتصاب له»[١].

وكذلك تشجيعه على التعبير عن رأيه في الأمور الخاصة بالأسرة، كوجبات الغذاء، وأثاث المنزل، ورحلات السفر. وإثارة القضايا الاجتماعية والسياسة أمامه، وطلب رأيه فيها.

ويجري الآن في بعض دول العالم الديمقراطية استضافة مجاميع من طلاب المدارس الصغار، إلى مبنى البرلمان، في بعض الأيام، وعقد جلسة برلمانية خاصة بهم، لمناقشة قضايا محددة، وتدريبهم على التصويت وإبداء الرأي.

وفيما يرتبط بمواجهة المواقف ينصح علماء التربية، بتدريب الطفل على تحمّل المسؤولية عن أقواله وأفعاله، فإذا طلب من أمه ـ مثلاً ـ أن تخبر صديقاً يريد محادثته تليفونياً أنه نائم، لأنه لا يريد الذهاب معه لبرنامج ما، فعليها أن ترفض ذلك، وتوضح له بأن عليه مواجهة صديقه بعدم رغبته والاعتذار إليه، بدلاً من التهرب منه والاحتماء بها.

وحين تعود الابنة باكية من المدرسة لأن أحد الشباب ضايقها في الطريق، وتقرر عدم الذهاب للمدرسة، أو الذهاب برفقة أخيها، فمن

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٢٧٦٥٩، ج ٢١، ص٤٨٦.

الأفضل رفع معنوياتها، وإشعارها بأنها قادرة بنفسها على ردع هذا الشاب، بتهديده بإبلاغ الشرطة، وتحريض المارة لإيقافه عند حدّه وفضحه أمام الناس.

وكذلك حين يحصل نزاع بين الابن وبعض زملائه في المدرسة، فلا ينبغي للأب أن يسارع إلى التدخل للدفاع عن الابن والانتصار له، بل عليه أن يرشده إلى أفضل الطرق لمواجهة المشكلة بنفسه.

وهكذا فالمنهج الصحيح تدريب الولد على تحمل المسؤولية، والدفاع عن حقوقه ومصالحه، إلا في المواقف التي تستدعي التدخل.

نحو ثقافة توكيدية:

وبعد العائلة يأتي دور المحيط الاجتماعي والثقافة السائدة فيه، فقد تكون قائمة على أساس احترام الفرد، والاعتراف بحقه في التعبير عن ذاته، وتشجيعه على إبراز كفاءته ورأيه، وهنا يكون المحيط الاجتماعي مساعداً على تنمية الذات، ورفع درجة توكيديتها.

على العكس من ذلك إذا سادت أجواء الإرهاب والقمع الفكري، والتقليل من شأن الفرد إلى حد الذوبان والانسحاق، ليصبح أمّعة طبقاً لشعار (حشر مع الناس عيد) وكما يقول تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[١].

(١) سورة المدثر: الآية ٤٥.

ففي مثل هذا المحيط ينخفض مستوى التوكيدية عند الفرد، مما يجعله سهل الانقياد مع أي تيار جارف، ولقمة سائغة لكل قوي معتدي.

إن تعاليم الإسلام تربي الإنسان على أساس المسؤولية، فهو محاسب أمام الله تعالى عن أفعاله وأقواله، لأنه شخصية مستقلة، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(١).

ولا يُقبل منه أبداً التنازل عن عقله وإرادته انبهاراً بالآخرين وخضوعاً لهم، حيث يرفض الله تعالى الاعتذار بذلك يوم القيامة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾(٢).

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما تعني واجب كل مسلم في الاعتراض على الخطأ، وعدم ممالأة الانحراف والفساد، من أي جهة كان، (فالساكت عن الحق شيطان أخرس).

لكن التوكيدية والتعبير عن الذات والرأي، لا تعني التهور والصدامية، ولا الانطلاق مع الأهواء والرغبات، دون ضوابط والتزامات، إن ذلك يقود إلى الفوضى والفساد.

حيث وهب الله تعالى الإنسان عقلاً يشكل مرجعية لسلوكه وممارساته، والتوكيدية منهج وسلوك في ظل هدي العقل ونوره.

(١) سورة الطور: الآية ٢١.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

من هنا يحتاج الإنسان إلى الحكمة واللباقة ليعبّر عن ذاته، ويحمي مصالحه وحقوقه، بالأسلوب الصحيح المناسب، وإلاّ فقد يجلب لنفسه الشقاء، ويسيء إلى علاقاته مع الآخرين.

والقصة التالية من تراثنا العربي نموذج لموقف توكيدي رائع، تمثل الجرأة في التعبير عن الرأي، واللباقة في تجنب الخطر:

يحكى أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عِجْل فقال له: من أين أيُّها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال كيف ترون عمّالكم؟ قال: شرَّ عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما وَلِيَ العراق شرٌّ منه، قبَّحه الله، وقبح من استعمله. قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج. قال: جعلت فداك، أو تعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا فلان بن فلان من بني عِجْل، أُصرعُ في كل يوم مرتين ـ أي أصاب بالجنون ـ قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة[1].

(١) الأبشيهي: محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، ج١، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م، (بيروت: المكتبة العصرية)، ص١٠٨.

المبادرة واستباق الخيرات

تمتلـئ الحياة بفرص الخير ومجالات التقدم، ويمتلك كل إنسـان من القدرات والاسـتعدادات ما يؤهله لاقتناص تلك الفرص، وارتياد تلك المجالات، لكن الناس يتفاوتون في الانتباه لها والمبادرة نحوها.

فهناك من يدّرب نفسـه على التركيز في النظر، وإمعان الفكر، ودقة الملاحظـة، فـي أي ميـدان مـن الميادين التـي تحيط به، فـي العلم أو العمل، أو السياسـة أو التجارة، أو ما أشـبه، فيلمـح الفرصة من بعيد، ويلتقط الإشارات، ويستقرأ الأوضاع والأشخاص.

وهناك البسـيط المسترسـل في حياته وأموره، الذي لا يرهق نفسه بتفكير أو تحليل، ولا يتجاوز في نظراته السـطح أو الظاهر، فتمر عليه الفـرص، وتتـاح له المجـالات، وهو غافل سـاه، كأنـه لا يبصرها ولا يدركها.

كما أن من يلتفتون إلى الفرص ويدركونها يختلفون ويتفاوتون في

مستوى الفاعلية والإقدام، لأخذ زمام المبادرة، والتوثب نحو أعمال الخير.

ذلك أن الكثيرين ترد على أذهانهم أفكار جيدة، وتتوافر لهم ظروف مناسبة للإنجاز والتقدم، لكن عوائق نفسية، تقعد بهم عن الاندفاع والمبادرة، بينما يفوز بها الشجعان المبادرون.

فالمبادرة هي عنوان النجاح، وهي طريق التقدم، وسلاح اغتنام الفرص، واستثمار الظروف، والفرد المبادر يحقق الإنجازات، ويحظى بالمكاسب. وكذلك المجتمع الذي يتحلى بهذه الصفة، فإنه يتمتع بالحيوية، ويطوّر واقعه إلى الأفضل بشكل دائم مستمر.

في القرآن الكريم:

ولأهمية هذه الصفة في حياة الفرد والمجتمع، تحدث عنها القرآن الكريم في آيات عديدة، وبأكثر من تعبير. فقد ورد الحديث عن المبادرة في بعض الآيات بلفظ المسارعة.

يقول تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٤.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[1].

والمسارعة في اللغة مصدر قولنا: سارع فلان إلى كذا، مأخوذ من مادة (س ر ع) التي تدل على خلاف البطء وسارع بمعنى أسرع يقال ذلك للواحد وللجميع سارعوا. والمسارعة إلى الشيء المبادرة إليه[2].

ونلحظ في الآيات الكريمة توجيه الخطاب إلى الجمع وليس إلى الفرد فقط، لأن المطلوب أن تكون هذه الصفة سمة للمجتمع كله في مسيرته ومواقفه، كما أن بعض الآيات استخدمت تعبير المسارعة في الخيرات، بدل المسارعة إلى الخيرات، لتعطي إيحاءً بعمق حالة المبادرة داخل المجتمع، فالجميع في إطار الخير، لكن هناك من يضاعف سيره ونشاطه، لأن المسارعة إلى الشيء تكون من خارجه، بينما المسارعة في الشيء تكون من داخله.

يقول ابن عاشور: في للظرفية المجازية، وهي تخييلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزيّة السرعة في قطعه[3].

وتحدثت آيات أخرى عن السبق والمسابقة واستباق الخيرات، يقول تعالى:﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[4] ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.
(٢) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٣، ص١٣٤.
(٣) ابن عاشور: محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج٤، ص٥٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١] ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٢].

والسبق: القُدْمة في الجري وفي كل شيء. وتقول العرب للذي يسبق من الخيل: سابق وسبوق. وأسبَقَ القوم إلى الأمر وتسابقوا: أي بادروا ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا إليها. وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه[٣].

هذه الألفاظ الثلاثة، المسارعة والمسابقة والمبادرة، متقاربة المعنى إلى حدٍّ كبير، ومع أن بينها فروقاً في الاستعمال في كثير من السياقات، إلا أن بينها ما يسميه بعض اللغويين بالترادف الجزئي، ويراد به أن يستعمل اللفظان أو الألفاظ استعمالاً واحداً في بعض السياقات دون بعضها الآخر. وهذه الألفاظ الثلاثة من هذا القبيل، فهي عند الاقتران بالخيرات أو العمل الصالح يكون لها المعنى نفسه، وقد كثر لفظ «المبادرة» في الحديث الشريف، ولفظ المسارعة في القرآن الكريم، أما المسابقة فقد وردت فيهما على سواء[٤].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢١.
(٢) سورة الواقعة: الآيتان ١٠-١١.
(٣) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٣، ص٩٠.
(٤) مجموعة من المختصين: بإشراف: صالح حُميد - عبد الرحمن بن ملُّوح، موسوعة نضرة النعيم، ج٨، ص٣٣٨٨.

الأوائل:

المبادرة تجعل الإنسان رائداً يقتحم مجالات لم يسبقه إليها غيره، وتدفعه إلى تحقيق إنجازات لم يتوفق لها أحد قبله، فيكون قد شق طريقاً جديداً، وفتح أفقاً آخر أمام أبناء مجتمعه وجنسه، والذين سيسلكون نفس الطريق بعد أن مهدّه لهم، واكتشفه قبلهم، فيبقى هو الأول والمتقدم والسابق. بالطبع فإن الارتياد والاقتحام لميدان جديد، ولطريق لم يسلك، لا يقوم به إلا كفؤ شجاع. لذلك يستحق الأوائل السابقون في ساحات الخير كل تقدير وإكبار. فقد أشاد القرآن الكريم بالأوائل السابقين إلى الدين والحق يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾[1].

وفي أكثر من آية كريمة يشجع القرآن الإنسان، أن يتطلع إلى أن يكون الأول في طريق الخير والصلاح، وذلك لا يتم إلا بامتلاك روح المبادرة يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[2] ويقول تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. والأول هو ابتداء الشيء[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.
(٣) سورة الزمر: الآية ١٢.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٥) الطريحي: فخر الدين، مجمع البحرين، ج٥، ص ٣١١.

ونجد في حضارتنا العربية الإسلامية اهتماماً وعناية بمفهوم الأوليّة، حيث خصصوا بداية كل شيء وأوله باسم وعنوان خاص، لتمييزه وابرازه، فأول النهار صبح، وأول الليل غسق، وأول المطر وسمي، وأول العصير سُلاف، وأول مولود لأبويه بكر، وأول كل شيء باكورة، وأول الجيش طليعة.. وهكذا.

بل شهد نهاية العصر العباسي الأول ولادة فن جديد من فنون التاريخ على يد أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني المتوفى (٢٢٥هـ/ ٨٤١م) أسموه (علم الأوائل). وعرف القلقشندي هذا العلم في كتابه (صبح الأعشى) بقوله: «هي معرفة مبادئ الأمور المهمة». أما حاجي خليفة فقد قال عن علم الأوائل في كتابه (كشف الظنون) ما يلي: «هو علم يتعرف منه أوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن والنسب. وموضوعه وغايته ظاهرة. وهذا العلم من فروع التواريخ والمحاضرات».

وهكذا كان الاهتمام بالتعرف إلى الرواد الأوائل وتعريفهم، وعلى بدايات ظهور الأشياء والحوادث على أيديهم. فظهرت مؤلفات كثيرة حول هذا الموضوع، منها ما طبع ومنها ما هو مخطوط. منها كتاب (الأوائل) لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) والذي طبع أكثر من مرة. وكتاب (الوسائل إلى معرفة الأوائل) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٦م) وهو مطبوع أيضاً، وتنوف الكتب المخطوطة

حول الأوائل على ثلاثة عشر كتاباً[1].

شخصية المبادر:

هنـاك عناصر وعوامل تخلق روح المبادرة في شـخصية الإنسـان ومن أهمها ما يلي:

١) الوعي والمعرفة:

بمقـدار معرفـة الإنسـان ومتابعتـه لأي مجـال مـن المجـالات، يستكشـف الفـرص فيـه، وتتضح لـه الإمكانيـات ضمنـه، وذلك أول شـرط من شـروط المبادرة، فالجاهل بالأوضـاع الاقتصادية، ومن لا يتابـع حركتها وتطوراتهـا، لا تخطر بباله فرص الاسـتثمار، ولا يدرك مواقع الاستفادة والربح، وحتى لو امتلك المال والثروة لكنه لا يلتفت إلى أفضل سـبل تنميتها وتفعيلها، وهكذا الحال في المجال السياسي أو الاجتماعي.

كمـا أن الوعـي العـام بطبيعة الحيـاة، ومجريات الأمـور، وطريقة التعامل مع القضايا والأحداث، هو الذي يجعل الإنسان مهيئاً للتعاطي مع الظروف المختلفة، وقادراً على فهم معطياتها.

(١) السـيد: الدكتـور فـؤاد صالح، معجـم الأوائل في تاريـخ العرب والمسـلمين، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار المناهل)، ص١٠.

٢) الثقة بالذات:

بعض الناس ترد على أذهانهم أفكار جيدة، لكنهم يهملونها لأنهم يشكون في قدرتهم على إنتاج وإدراك الأفكار الصحيحة، ويتساءلون: إذا كانت تلك الفكرة سليمة لماذا لم يدركها فلان وفلان؟ ولماذا لم يقل بها فلان وفلان؟

وفي مستوى آخر من ضعف الثقة بالنفس، يشكك البعض في إمكانياتهم وأهليتهم الذاتية، لتحقيق هذا الإنجاز، أو القيام بتلك المهمة.

بينما ينطلق المبادر من ثقة عميقة بذاته، وأنه لا يقصر عن غيره في القدرات والمؤهلات، ولا يقعد به شيء عن الريادة والإبداع.

فإذا ما اقتنع بفكرة ووجدها صحيحة سليمة، لم ينتظر اقتناع غيره لكي يأخذ هو بتلك الفكرة، وإذا سنحت أمامه فرصة لم يتردد في استثمارها، ولا يرى أن غيره أولى بها أو أقدر عليها.

٣) الاستعداد للتضحية والعطاء:

اقتحام الإنسان لما ليس مألوفاً، وارتياده لميادين جديدة، وساحات غير مطروقة، يعني خوض مغامرة محفوفة بمختلف الاحتمالات، وهي تكلف عناءً وجهداً، كما تعرّض صاحبها للنقد والاعتراض، وهذا ما يقعد بالكثيرين عن المبادرات، خوفاً من الفشل، أو تهيباً من المخالفة، لكن المبادر الشجاع يتوكل على الله، ويستعد للتضحية

والعطاء، في سبيل ما اتضح له أنه حق وصواب.

٤) الفاعلية والنشاط:

فالمبادرة تعني الحركة والإقدام، ومن أصيب بداء الكسل والخمول والتواني، لا يكون مبادراً أبداً.

ورد عن الإمام علي عليه السلام: «التواني إضاعة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «عدو العمل الكسل».

اغتنام الفرص:

إذا ما أتيحت للإنسان فرصة تقدم، فعليه أن يبادر لاغتنامها، لأن بقاءها واستمرارها غير مضمون، وغالباً ما فإن «الفرصة تمر مر السحاب» كما يقول الإمام علي عليه السلام، وعودة تلك الفرص أو تكرارها ليس محرزاً ولا سريعاً، فهي «سريعة الفوت بطيئة العود» كما في كلمة أخرى عنه.

وهذا يعني الاستعداد والتهيؤ لاقتناص الفرص، نفسياً وعملياً. يقول الأستاذ المدرسي: كما الطيور التي تقفز في السماء، تطير بخفة وسرعة، فإذا أردنا اصطيادها فلا بد أن نهيئ السلاح مسبقاً، ونفتح عيوننا جيداً حتى إذا مرّت رميناها فوراً، وإلا فلن نحصد إلا الحسرات.. كذلك الفرصة، تقفز في الزمن مثل الشهاب، فمن أرادها فلا بد أن يتهيأ لها سلفاً، فيرميها بنبال مبادرته، وإلا فإن «إضاعة

الفرصة غصة» ونظراً إلى أن «الفرصة خلسة» فإن «من أخّر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها» فالأيام ليست ثابتة، والزمن ليس جامداً، ولذلك فإن الفرص تظهر وتختفي على دقات الساعات، من هنا كانت المبادرة من صفات العظماء[١].

من ناحية أخرى، فإن الإنسان إذا ما سوّف وتماهل ولم يبادر، فإنه بالإضافة إلى احتمال فوت الفرصة، قد يفقد هو القدرة والإمكانية، فاستمرار حياته ليس بيده، كما لا يضمن صحته، والحفاظ على مستوى نشاطه، ودوام وسائل وآليات الحركة عنده، ويعبر عن هذه الاحتمالات قول الإمام علي عليه السلام: «وبادروا بالأعمال عُمُراً ناكسا، أو مرضاً حابسًا، أو موتًا خالسًا»[٢]. وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «بادروا بعمل الخير قبل أن تشتغلوا عنه بغيره»[٣].

وقد تبقى الفرصة موجودة، وقدرات الإنسان وإمكانياته محفوظة، لكنه إذا لم يبادر مع مرور الزمن قد يفقد حماسه واندفاعه وهذا ما يشير إليه الإمام محمد الباقر عليه السلام بقوله: «من همّ بشيء من الخير فليعجله فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة»[٤].

وفي حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا هم أحدكم بخير

---

(١) المدرسي: السيد هادي، أخلاقيات أمير المؤمنين، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (بيروت مؤسسة الأعلمي)، ص١١٩.
(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٣٠.
(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢١٥.
(٤) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص١٤٣.

أو صلة فإن عن يمينه وشماله شيطانين، فليبادر لا يكفاه عن ذلك»[١].

ويجمع كل ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنـــه»[٢].

مجتمع المبادرات:

كما يتفاوت الأفراد في مستوى استجابتهم لفرص التقدم والخير، بيـن مبادر وخامل، كذلك تتفاوت المجتمعـات، بين مجتمع تكثر فيه المبادرات، للاستفادة من أي فرصة، ولمعالجة أي مشكلة أو خلل، وذلـك هـو المجتمع الحـي الناهض المتحضـر. وبين مجتمع يسـود أجـواءه الخمـول والتـواكل، فـلا يفعّل الإمكانيـات المتاحـة له، ولا يستثمر الفرص من أجل حل مشـاكله، أو تطوير واقعـه، وإنما يكتفي أفراده باجترار الألم والأسـى، أو يترامون المسؤولية، وتنتظر كل جهة مبادرة الجهة الأخرى.

إن مجتمعاتنـا تواجـه تحديـات خطيـرة لقيمهـا وأخلاقهـا، ولاستقرارها ومصالحهـا، وتمتلـك مـن الإمكانيـات والقـدرات والكفاءات ما يساعدها على مواجهة هذه التحديات والاستجابة لها، لكن المشكلة تكمن في ضعف الحركة والفاعلية، وغياب المبادرات.

يتحدث الناس في مجالسـهم عن الكثير من النواقص والمشـاكل،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٦٥.

ولا يخلو مجتمع منها، ولكن إلى متى نكتفي بالحديث عن المشكلة؟ ومن يا ترى يتحمل مسؤولية المبادرة إلى الحل؟ والسعي نحو العلاج؟

يتحدث البعض عن أن المفروض كذا ويجب أن يحصل كذا، ولا بد أن يتحقق كذا، فيوزعون الواجبات والمفروضات على الآخرين، دون أن يحددوا هم ما هو دورهم وواجبهم وماذا عليهم أن يفعلوا؟

إننا لسنا بحاجة إلى فلاسفة أو متفلسفين، ولا إلى منظّرين ومحللين، بمقدار ما نحن بحاجة إلى من يعلق أجراس المبادرات العملية، التي تعالج قضايا المجتمع ومشاكله.

فحينما يجري الحديث عن حالة الضياع والفراغ التي يعيشها الكثير من الشباب، أو ظاهرة انتشار بعض المفاسد والانحرافات، أو وجود حالات من العوز الفقر، أو ركود في حركة الثقافة والمعرفة.. أو أي قضية تثير القلق على مستقبل المجتمع، فإن المطلوب هو تجاوز حالة التوصيف للمشكلة إلى وضع الحلول والمعالجات العملية التي نتحمل مسئوليتها.

إن الله سبحانه وتعالى يحذر عباده المؤمنين من أن يصبح الكلام عندهم بديلاً عن العمل، ومن أن يكتفوا بالقول عن الفعل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ

أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[1].

ويوبّـخ الإمام علي عليه السلام مجاميع ممن حولـه من الذين يتحدثون في المجالس بصوت عال، ويزايدون على بعضهم في الحماسة والاندفاع، لكنهم يتراجعون ويجبنون ساعة الجد والمواجهة والعمل، يقول عليه السلام: «كلامكم يُوهي الصُّمَّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حَيَاد!»[2].

ومـا أشـد انطبـاق هـذا الـكلام علـى الكثيرين مـن النـاس الذين يتحدثون عن بعض المشـاكل بحماس واندفـاع في المجالس، فإذا ما طلبت منهم عملاً أو دوراً تفننوا في تقديم الأعذار والمبررات!!

ولا بد أن نشيد هنا بالمبادرات الطيبة التي يقوم بها أفراد مخلصون من أبناء المجتمع، كالقائمين على نشـاط الجمعيات الخيرية، ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجانات الزواج الجماعي، وبرامج التوعية والتثقيف الدينية.. إنهم يسدون بذلك ثغرات في واقع المجتمع، فجزاهم الله خير الجزاء، لكن قضايا ومشاكل أخرى تنتظر مبادرين آخرين..

---

(١) سورة الصف: الآيتان ٢-٣.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ٢٩.

نحو استثمار أفضل لوقت الفراغ

تتفـق كل أنظمـة التعليم في جميـع دول العالم، علـى منح طلابها إجـازة سـنوية خـلال فتـرة الصيف، تقـارب ثلاثة أشـهر يطلـق عليها «عطلـة الصيـف»، وإقـرار نظام العطلـة الصيفية جاء محصلـة ونتيجة لتطور تجارب المجتمع البشري، في مجال علم التربية والاجتماع.

فالدراسـة الأكاديميـة المنتظمة، تسـتلزم بذل جهد ذهني ونفسـي مـن الطالـب، وتقيّـد حريته وحركتـه ببرنامجهـا اليومـي الرتيب، مما يجعله في حاجة إلى فترة من الراحة، بالتوقف عن التزاماته الدراسـية، وشعوره بالحرية والانطلاق.

محطة التوقف هذه أثناء العطلة الصيفية تؤدي عدة وظائف لصالح العملية التعليمية. فهي:

أولاً: تعطـي الطالـب فرصـة لتجديـد نشـاطه الذهنـي والنفسـي، حتى لا يسـتنـزفه العناء، ولا يسـيطر عليـه الإرهاق والملل،

فيستأنف بعدها عامه الدراسي الجديد برغبة وشوق.

ثانياً: تشكل العطلة الصيفية فاصلة بين المراحل والبرامج التعليمية، تنبه الطالب إلى حركة مسيرته الدراسية، وتجاوزه لأشواطها، ومستوى خطواته في طريقها، وتهيؤه للاستعداد لكل مرحلة جديدة.

ثالثاً: تمنحه المجال لاستكمال بعض نواقصه، ومعالجة ثغرات تحصيله، ليواكب مسيرة المنهج الدراسي، ولا يتخلف عن مستوى زملائه وأقرانه.

رابعاً: تتيح الفرصة لتنمية شخصيته الإنسانية، في أبعادها المختلفة، فهو إنسان ذو مشاعر وأحاسيس، وله مواهب وقدرات، فلا بد له من أفق مفتوح أمامه، لإشباع مختلف حاجاته، وممارسة رغباته المتعددة.

لكل هذه الأغراض وأمثالها اتفقت أنظمة التعليم على إقرار العطلة الصيفية، ومن نفس المنطلق، اعتمدت أنظمة العمل في جميع الدول، حق الإجازة السنوية لكل عامل.

صحيح أن العمل ذهنياً كان كالدراسة، أو عضلياً كسائر مجالات الإنتاج، هو القيمة الأساس في الحياة، وهو يعني الفاعلية والنشاط المباشر، لتوفير المتطلبات، وتحقيق الطموحات، لكن وقت العطلة والفراغ، هو الآخر لا يخرج عن هذا الإطار، حيث يقصد منه تحديد

رغبـة العمـل، وتنميـة دوافعـه، وتوفير مسـتوى من الارتيـاح والرضا النفسي.

وقت الفراغ:

وهو الوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من التزامات العمل وواجباته، أو التزامات الدراسـة ووظائفها بالنسـبة للطالب، وهناك عدد كبير من التعريفـات والتصنيفـات، وأسـاليب القيـاس لوقت الفـراغ، تناولتها الدراسات المختصة.

ويمثل موضوع «وقت الفراغ» ميداناً لبحوث مكثفة من قبل علماء الاجتماع، ورغم حداثة الاهتمام بهذا الموضوع علمياً، إلا أنه سرعان ما جذب اهتمام العلماء، واسـتقطب جهودهم، فأصبح منافسـاً لكثير من فروع علم الاجتماع، مع أسبقيتها عليه.

وذلـك لما لهذا الموضوع مـن آثار تمتد لتشـمل مختلف جوانب حياة الإنسـان، التربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية. مما جعل الاهتمام بوقت الفراغ ليس مسـألة جانبية أو هامشية، بل جزءاً أساسياً من الاهتمام بشخصية الإنسان، وبالنظم الاجتماعية القائمة في الحياة المعاصرة.

وقد تبلورت ظاهرة وقت الفراغ لدى الإنسان المعاصر، في أعقاب الثورة الصناعية في مجتمعاتها، بعد أن كان العامل في عصور الإقطاع مسـخّراً، لا يتمتع بشيء من حقوقه الإنسـانية، فضلاً عن حق الإجازة

والعطلة السـنوية. وفي معظم المجتمعات البدائيـة والزراعية، يضطر الإنسـان للاستمرار في الكدح والعمل طوال السنة، لتوفير احتياجات حياته، التي تكاد تخلو من الفراغ بالشكل السائد اليوم.

وكشفت دراسات علماء الانثروبولوجيا، لأساليب الحياة اليومية، للمجتمعات البسيطة والتقليدية، أنه لم يكن يوجد في هذه المجتمعات خط فاصل تماماً، بين العمل والفراغ، ذلك أن العمل يستنفذ طاقاتهم، وتختلط أنشـطته بأنشطة الترويح والتسلية، حيث كانوا يقومون ببعض العـادات والتقاليد الترويحية أثناء العمل، كالرقص أو الغناء أو المزاح أو العمل التعاوني، وبعض هذه العادات والتقاليد كان ذا طابع ديني[1].

لكن باحثين من علمـاء الاجتماع، يذهبون إلى عراقة ظاهرة وقت الفـراغ، فـي كل الحضـارات، عبـر تاريـخ البشـر، لكنهـا كأي ظاهرة إنسانية أخرى تعرضت للتغيّر والتطور، حتى أصبحت الآن أكثر تقنيناً وانتظاماً، بفعل تطور الحياة، وتجارب الزمن.

ونجـد فـي كتابات أرسـطو وأفلاطـون، وسـائر فلاسـفة اليونان، مؤشـراً علـى وجود ظاهرة وقـت الفراغ في تلـك المجتمعات، حيث لـم تخل تلك الكتابـات من تناول هذه الظاهـرة، والحديث عنها بدقة وعمق، باعتبارها فرصة للتربية، وتنمية النفس أو الروح.

---

(١) محمـد: الدكتور محمد علي، وقت الفراغ في المجتمع الحديث، ١٩٨٥م، (بيروت: دار النهضة العربية)، ص٤٨.

على أن بعض علماء الاجتماع، يرون أن ظاهرة وقت الفراغ آنذاك، كانت محصورة في إطار الطبقة الممتازة، صاحبة المكانة الرفيعة في المجتمع الإغريقي، ولم تكن حالة عامة لدى سائر الطبقات.

أما في العصر الحديث فيتمتع كل عامل أو طالب بوجود وقت فراغ، نظراً للأنظمة السائدة في العالم، القائمة على تحديد ساعات الدراسة والعمل، وإقرار نظام الإجازات والعطل، ونظراً لتقدم مستوى المعيشة والحياة، مما جعل وقت الفراغ جزءاً من نظام حياة الناس غالباً.

الاهتمام بوقت الفراغ:

في وقت مبكر اهتم فلاسفة اليونان بوقت الفراغ، وأكدوا على ضرورة توظيفه روحياً، حيث ركز أرسطو على أهمية استثمار الفراغ في الموسيقى والتأمل، انطلاقاً من رؤيته لدور الأنشطة الموسيقية في تنمية العقل وملكة التفكير، ولمحورية التأمل في بناء شخصية الإنسان وتحقيق إنسانيته.

أما في العصر الحديث فإن الاهتمام بوقت الفراغ أحرز تقدماً كبيراً، وشغل مساحة واسعة، على الصعيد المعرفي والثقافي. فمنذ العشرينيات والثلاثينيات للقرن العشرين، ظهرت كتابات ودراسات كثيرة، في أوروبا وأمريكا، عن وقت الفراغ.

وفي عام ١٩٢٤م نظم مكتب العمل الدولي أول مؤتمر عالمي عن

وقت فراغ العامل، شارك فيه أكثر من ٣٠٠ عضو يمثلون نحو ثمانية عشر دولة.

وفي أوروبا حقق علم اجتماع الفراغ تقدماً كبيراً، إذ عمل «جورج فريدمان» بوجه خاص، على تنمية الاهتمام بدراسة دور الفراغ في إعادة وضع الإنسان، وتكييفه مع الحضارة التي تسيطر عليها التكنولوجيا.

وفي إنجلترا كان للدراسة التي أجراها كل من «روانتري» و«لافيرز» بعنوان «حياة الإنجليز والفراغ» أثرها في توجيه الاهتمام نحو تحرير عدد من المقالات السوسيولجية، والبحوث المتخصصة. كما بدأ «جو فردي مازدييه» في هولندا بحوثه عام ١٩٥٣م لعل أهمها أطلق عليه «نحو حضارة الفراغ» وكذلك دراسته بعنوان «الفراغ الحضري»[(١)].

رؤية دينية:

يمكننا أن نستخلص من النصوص والتعاليم الدينية، رؤية عميقة شاملة للدين، حول موضوع وقت الفراغ، وتعالج هذه الرؤية قضية الفراغ من ثلاث زوايا:

الأولى: تنمية حسّ المسؤولية تجاه الزمن، والحرص على الوقت، باعتبار محدودية عمر الإنسان، وأهمية طموحاته وتطلعاته، وعظيم

---

(١) المصدر السابق: ص٤٢-٤٤.

الطاقات والقدرات التي يختزنها، مما ينبغي أن يحفزه إلى استثمار كل لحظة من وجوده، بأفضل ما يمكن.

إن ما يعيشه الإنسان من عمر في هذه الحياة يبدو قصيراً، قياساً إلى عمر الزمن، وإلى آمال الإنسان، ورغبته في الخلود، وهذا ما تعبّر عنه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحكي عما يدور في نفس الإنسان تجاه الحياة بعد مغادرتها. يقول تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾[2].

ويحكى عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام: أنه جاءه ملك الموت ليتوفاه بعد أكثر من ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده، فسأله: يا أطول الأنبياء عمرا، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.

إن ما يخسره الإنسان من ماله وسائر ممتلكاته ومكاسبه يمكن تعويضه، والتوفّر على بدائله، لكن الوقت هو الشيء الذي لا يعوّض ما فات منه، ولا يمكن تداركه، فكل لحظة تمضي لا تعود، وكل يوم ينقضي لا يرجع. فهو رصيد محدود، ورأس مال نادر، بل هو رأس المال الحقيقي للإنسان، فلا بد من الحفاظ عليه، والاستفادة منه بأعلى حد ممكن.

(١) سورة المؤمنون: الآية١١٣.
(٢) سورة يونس: الآية ٤٥.

وفي الحقيقة فإن الوقت هو الحياة يقول الإمام علي عليه السلام: «إنما أنت عدد أيام، فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك» ويقول عليه السلام: «ما نقصت ساعة من دهرك إلا بقطعة من عمرك». وقال الشاعر:

كل يوم يمر يأخذ بعضي   يورث القلب حسرة ثم يمضي

وقال شاعر آخر:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها   وكل يوم مضى جزء من العمر

وروي عن رسول الله أنه قال: «كن على عمرك أشح منك على درهمك ودينارك»[1].

وتنبيهاً للإنسان على أهمية الزمن يقسم الله تعالى في القرآن الكريم بالعديد من الفواصل والمحطات الزمنية، كما في الآيات التالية:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[2].

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[3].

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[4].

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[5].

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٧٦.
(٢) سورة الليل: الآيتان ١-٢.
(٣) سورة الفجر: الآيتان ١-٢.
(٤) سورة الضحى: الآيتان ١-٢.
(٥) سورة العصر: الآيتان ١-٢.

هـذه النصـوص والتعاليـم تربـي الإنسـان علـى احتـرام الوقـت والاهتمـام باسـتثماره، وأن يتصرف فيه بمسـؤولية وتقدير، ليسـتطيع تحقيق أكبر قدر من الإنجازات والمكاسب.

فهو مسـؤول أمام الله تعالى عن تعامله مع أوقات حياته، عن معاذ بـن جبـل أن النبي ﷺ قال: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسـأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه...» رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح.

وكمـا يهتـم الإنسـان باحتـرام وقتـه واسـتثماره، عليـه أن يحتـرم أوقات الآخرين، فلا يكون سـبباً في تضييعهـا وإهدارها بعدم الالتزام فـي المواعيد، والزيارة في الأوقات غير المناسـبة لهـم، وإطالة اللقاء والحديث دون فائدة أو غرض.

إن احترام الوقت هو أحد أهم مقاييس التقدم للأفراد والمجتمعات.

تنوّع المهام والأبعاد:

وهـذه هي الزاوية الثانية من الرؤية الدينية لوقت الفراغ، فالإنسـان كائـن مميّز، لشـخصيته أبعاد مختلفة، فهو مادة وروح، نفس وجسـد، وهو مواطن في عالمين: الدنيا والآخرة، له مصالحه الفردية وارتباطاته الاجتماعية، يتمتع بقدرات ذهنية عقلية وقوى عضلية بدنية..

هـذه الأبعـاد المختلفة لشـخصيته تجعله متنـوع الأدوار والمهام،

بسبب تنوع قدراته وطاقاته، وإذا ما حصر الإنسان نفسه ضمن بعد واحد، فإنه يئد ويكبت سائر الجوانب والأبعاد.

كما أن استغراق الإنسان لوقته في عمل واحد، قد ينتج عنه الملل والسأم، لذلك تنصح التعاليم الدينية بأن يقسّم الإنسان وقته على وظائفه ومهامه المختلفة، لتنمية شخصيته في مختلف الأبعاد، وتلافياً للتعب والملل. فيكون وقت الفراغ من عمل، فرصة للانتقال إلى عمل من نوع آخر.

وحتى في العبادة المستحبة، لا ينصح الدين بالاستغراق فيها إلى حد فقدان الرغبة والنشاط، ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة عنه أنه قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلّ حتى تَمَّلوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُووم عليه وإن قل»[١] وفي حديث آخر عن أنس ﵁: «ليصلّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتَرَ قعد»[٢].

ومما رواه النبي ﷺ عن صحف إبراهيم ﵇: «ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله عزوجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب» رواه ابن حيان في صحيحه والحاكم وقال:

---

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٧٨٢.
(٢) المصدر السابق: حديث رقم ٧٨٤.

صحيح الإسناد كما في الترغيب[١].

وروي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات»[٢].

من خلال هذه الرؤية تصبح العطل والإجازات من الدراسة والعمل، فرصة لتنمية أبعاد أخرى في شخصية الإنسان، وللقيام بأدوار ومهام في ميادين وحقول ثانية.

إن الله تعالى يخاطب نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[٣] إي إذا فرغت من مهمة ودور، فانتصب لمهمة أخرى، ودور آخر.

إن لكل جهة في حياة الإنسان حقوقاً ومستلزمات، فلا يصح أن يستهلك جهده في جهة واحدة على حساب بقية الجهات، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن لبدنك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقاً».

(١) القرضاوي: الدكتور يوسف، الوقت في حياة المسلم، الطبعة الخامسة ١٩٩١م (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص١٩.
(٢) بن شعبة الحراني: محمد بن الحسن، تحف العقول، ص٣٠٢.
(٣) سورة الشرح: الآيتان ٧-٨.

مشروعية الترويح:

أما الزاوية الثالثة فهي ما تشير إليه النصوص والتعاليم الدينية، من مشروعية الترويح عن النفس، وممارسة بعض البرامج الترفيهية.

تجاه وقت الفراغ، وطريقة التعامل معه، نجد أمامنا ثلاثة اتجاهات: يتمثل الأول في النظرة الجادة للوقت، ورفض التفريط بأي ساعة من ساعاته خارج إطار العمل، وتحمل الالتزامات والمسؤوليات. ولعلنا نجد في حماس اليابانيين للعمل، وعدم رغبتهم للتعطيل، والاستفادة من الإجازات، أنموذجاً لهذا الاتجاه، حتى إن نسبة من الوفيات لديهم تحصل بسبب إرهاق العمل، ذكر «ميشيل البير» في كتابه (الرسمالية ضد الرأسمالية): أن ١٠٪ من الذكور البالغين الذين يموتون في اليابان كل عام، يقتلون أنفسهم بكثرة العمل، و يحصل اليابانيون على أسبوع واحد إجازة في السنة، واقترحت الحكومة اليابانية تخفيض ساعات العمل من ٤٤ ساعة إلى ٤٢ ساعة أسبوعياً، ولكن الأكثرية من الشعب تخالف هذا الاقتراح.

أما الاتجاه الثاني فعلى العكس من ذلك، حيث ينظر إلى الفراغ والتحلل من واجبات العمل، كهدف وطموح، ويتعاطى مع الالتزامات العملية، كحالة اضطرارية قسرية، يبحث عن أي فرصة للتهرب منها.

والتقارير التي تتحدث عن ضعف مستوى الإنتاجية لدى شعوب الدول النامية، مؤشر على شياع هذا الاتجاه فيها.

إن بعض العمال والموظفين يختلق المبررات لأخذ الإجازة للتغيب عن العمل، ويأتي متأخراً عن وقت الدوام، ويخرج قبل انتهائه، وأثناء وقت العمل، يصرف وقتاً كثيراً في قضاياه الشخصية، من شرب الشاي، أو محادثة الزملاء، أو التكلم تليفونياً، وما أشبه ذلك من الظواهر المؤسفة الشائعة، التي بسببها يتدنى الإنتاج، ويتأخر إنجاز الأعمال.

والاتجاه الثالث يتبنى نظرة تكاملية تعتبر الفراغ وجهاً آخر لعملة العمل، فهما جانبان متفاعلان يُثري كل منهما الآخر.

ففي وقت الفراغ، يمارس الإنسان بعض برامج الترويح والترفيه عن النفس، بهدف تجديد النشاط، وإراحة الأعصاب، وتنفيس ضغوط العمل وصعوباته.

ونجد في التعاليم الدينية إقراراً لمشروعية الترويح والترفيه عن النفس. فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت».

وعن الإمام علي عليه السلام: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها».

وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم».

والقرآن الكريم يوجهنا إلى التأمل في الطبيعة، والاستمتاع

بجمالها، والتفكر في عظمة الخالق المبدع..

كما وردت نصوص دينية كثيرة في التشجيع على الأسفار والرحلات، وتجيز الفكاهة والمزاح المناسب، وتحث على الرياضة، من سباحة و ركوب خيل، وسباق وغير ذلك.

لقد أصبح واضحاً في المجتمعات الحديثة تأثير وقت الفراغ في مستوى العمل، فإزداد الاهتمام ضمن العمل بساعات الترفيه وفترات الراحة والإجازات، من أجل أن يتمتع العامل بوقت فراغه، بصورة تنعكس إيجابياً على أدائه للعمل.

إن برامج الترويح عن النفس مصدر حيوية ونشاط، ودافعيه للإنجاز، وهو ما أشار إليه حديث الإمام موسى الكاظم عليه السلام بقوله: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان الثقات، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات».

فساعة الترويح عن النفس، تجدد نشاط الإنسان وقدرته على أداء مهامه واواجباته، في الأبعاد المختلفة.

التخطيط والبرمجة للعطلة الصيفية:

يتعامل كثيرون مع أيام العطلة الصيفية وسائر إجازات العمل

والدراسة، وكأنها مدة إضافية من الزمن، ليست من حساب أعمارهم، ولا تشكل جزءاً من رصيد حياتهم، لذلك يهدرون أوقاتهم خلالها، ولا يخططون للاستفادة منها، فتتصرم أيامها دون أن يحققوا لأنفسهم إنجازاً يُذكر.

إن عدم التفكير والتخطيط لاستثمار وقت الفراغ في العطلة والإجازة، قد يحوّلها من مبعث راحة، وتجديد نشاط، إلى مصدر كآبة وملل، ومن فرصة تنمية وبناء للذات، إلى أرضية سوء تُنبت المفاسد والأشواك.

قد يشعر الإنسان بالارتياح، في اليوم الأول والثاني من أيام الإجازة، لتحرره من التزامات العمل أو الدراسة، لكنه بعد ذلك سيعاني من ضغط الفراغ، إن لم يكن له برنامج بديل، أو اهتمامات تشغل نفسه ووقته، فحين لا يجد الإنسان ما يهتم به، يصيبه إحساس بالضياع واللاقيمة، كما قد تتسلل إلى نفسه اهتمامات سيئة، لملء فراغه النفسي والعملي.

يتحدث شاب جامعي عن نظرته لحالة الفراغ قائلاً: «وقت الفراغ في نظري، هو الوقت الذي لا أفعل فيه أي شيء، أي أنني أكون في هذا الوقت غير مشغول بممارسة أي نشاط سواء كان نشاطاً ذهنياً أم عملياً.. وهذا الوقت هو أكثر الأوقات سبباً في الإحساس بالملل، بل إنه ممل جداً بالنسبة لي، ولا أستطيع احتماله أكثر من ربع ساعة، والسبب في

ذلك أن هذا الوقت يعطي للعقل فرصة في أن يفكر في أشياء كثيرة، تجعل الإنسان يصاب بحالة اكتئاب نفسي، لأنه في الغالب تكون هذه الأشياء جزءاً من مخزون المشاكل التي تواجه الإنسان يومياً، ولذلك فأحسن تعبير يطلق على وقت الفراغ هو الوقت القاتل»[١].

التوجهات السيئة:

غالباً ما يكون الفراغ أرضية للانحراف، ودافعاً للتوجهات السيئة، حيث لا يشعر الإنسان بوجوده وقيمته، إلا إذا كان له تفاعل ما مع قضايا الحياة من حوله، فإن لم يتوفر له ما يمنحه هذا الشعور إيجابياً، فسيعاني حالة فراغ نفسي، تتولد منها هواجس وتصورات غير منضبطة، كما قد تتحرك لديه بعض النوازع والرغبات غير السليمة، التي هي تحت السيطرة في الأوضاع العادية السوية.

وأخطر ما يكون الفراغ في مرحلة الشباب، حيث يمتلك الشاب قوة فائضة، تبحث عن قنوات للتصريف، وحماساً كبيراً، يدفع نحو الفاعلية والنشاط. فإذا كانت أمامه برامج وأدوار، وخيارات مناسبة، تشغل اهتمامه، وتنمي شخصيته، وتفعّل قدراته بالاتجاه الصحيح، فإن ذلك سيكون لصالحه وصالح المجتمع.

أما في حالة الفراغ فإن الشاب يكون فريسة لمشاعر الملل

---

(١) محمد: الدكتور محمد علي، وقت الفراغ في المجتمع الحديث، ١٩٨٥م، (بيروت: دار النهضة العربية)، ص٢٤٤.

والإحباط، ولقمة سائغة لتيارات الفساد والانحراف، وهذا ما تعاني منه كثير من المجتمعات المعاصرة.

وكما اشتهر على الألسن قول الشاعر ـ أبو العتاهية ـ:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وقال شاعر آخر:

لقد هاج الفراغ عليه شُغلاً وأسباب البلاء من الفراغ

وينقل عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال لعامله: (إن هذه الأيدي لا بد أن تشغل فأشغلها بطاعة الله قبل أن تشغلك بمعصيته)[١].

وروى البيهقي عن عبد الله بن الزبير قال: أشر شيء في العالم البطالة[٢].

ومن اخطر السلبيات التي تنتج عن الفراغ، حالة الملل والسأم وهي مؤذية للنفس، مربكة لشخصية الإنسان، وهناك مقولة متداولة هي: (أن تشعر بالملل هو أن تقبل الموت)، والملل قد يدفع الإنسان إلى تصرفات عبثية ضارة، من أجل التخلص من الملل والخروج من عبء وطأته.

إن عدم التخطيط لاستثمار وقت الفراغ، وخاصة في العطلة

(١) السدحان: عبد الله بن ناصر، وقت الفراغ وأثره في انحراف الشباب، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، (الرياض مكتبة العبيكان)، ص٥٤.
(٢) القرضاوي: الدكتور يوسف، الوقت في حياة المسلم، ص٢٧.

الصيفيـة والإجازات، وعدم الاهتمام بتوفير البرامج المناسـبة من قبل الفـرد والمجتمـع، هو الذي ينتـج العديد مـن الظواهر السـلبية، التي تعاني منها مجتمعاتنا، ونلحظها في حياة الكثيرين في أوقات فراغهم، ومن أبرزها الظواهر التالية:

كثرة النوم:

يجد البعض في العطلة والإجازة فرصة جيدة لزيادة ساعات نومه، التـي قد تصل إلى عشـر سـاعات أو أكثر. بينما يكون معـدل نومه أيام الدراسـة والعمل في حدود سـت ساعات أو سبع سـاعات في أقصى حد.

لا شـك أن النـوم حالة طبيعيـة، وضرورة بيولوجية للإنسـان، كما لسـائر الكائنـات الحيّة، وأنه يخدم وظائف أساسـية، مهمتها اسـتعادة الإنسـان لنشـاطه، وللمقومات التي يعتمد عليها هذا النشـاط، وإعادة التوازن الذي اختل أثناء ساعات اليقظة.

ومن الواضح أن النائم يفقد إدراكه بما يحيط به، ويتوقف إحساسه بالحيـاة، وتفاعلـه معهـا. حيـث تتضـاءل جميـع أنشـطته، وترتخـي عضلاته، وتتباطأ ضربات القلب، وينخفض معدل التنفس.

فالنوم في مظهره يشـكل شـبه خـروج مؤقت للإنسـان عن معادلة الحياة. وإذا كان الإنسـان ينام ثماني سـاعات، في كل أربع وعشـرين سـاعة، فمعنـى ذلـك أن ثلـث عمـره يكـون خـارج دائرة الإحسـاس

والتفاعـل مع الحياة، ومن يحب الحياة، ويتبنى فيها أهدافاً وتطلعات، عليه أن يحرص على كسـب أي سـاعة ولحظة منهـا، والنوم فيما يزيد منه على الحاجة والضرورة، بمثابة هدر وتضييع لجزء من العمر.

لقد افترض الكثيرون: بأن الحاجة اليومية للنوم، هي ثلث ساعات اليـوم الواحـد، أو مـا معدلـه ٨ سـاعات، فـي كل ٢٤ سـاعة، واعتبر البعض: أن الإخلال بهذا المعدل، يلحق الأذى بصاحبه، لكن بحوث العلمـاء، والتجارب الميدانية والإختباريـة، أظهرت: أن معظم الناس ينامون لمعدل زمني يقع بين ٥ إلى ٦ سـاعات في اليوم الواحد، بينما ينام البعض لمدة أقل من ذلك، حدها الأدنى ٤ ساعات، وأن التفاوت في معدل النوم بين الناس يتأثر بعوامل شخصية تتعلق بالفرد نفسه.

وقد لوحظ بأن أولئك الذين يعيشون حياة نشطة وخلاقة ومجدية، وخالية من الهم، فإن حاجتهم للنوم، هي أقل من حاجة أقرانهم، ممن لا يظهرون مثل هذه الصفات.

ويقرر باحثون أخصائيون: بـأن الحد الأدنى للحاجة إلى النوم في الفرد النامي، ذكراً أو أنثى، يقع ما بين ٤ إلى ٥ سـاعات في اليوم، وقد يكـون فيما يزيد على هذا الحد إضافة لا حاجة هامة لها، وبأن بإمكان الفرد أن يستغني عنها[1].

---

(١) كمـال: الدكتـور علـي، أبـواب العقل الموصـدة ـ باب النـوم وباب الأحـلام، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، (بيروت: دار الجيل)، (عمّان الدار العربية)، ص١١٨.

وتحديد مدة النوم وزمنه، يخضع لما يعوّد الفرد عليه نفسه، ضمن الظروف والحالة الطبيعية، فإذا برمج وضعه على مدة معينة للنوم، فسينتظم عليها، وقد ينزعج للإخلال بها.

ويتضح من دراسات علمية عديدة، للمقارنة بين سمات وصفات فئة الأفراد طويلي النوم، وفئة الأفراد قصيري النوم: أن قصيري النوم هم أكثر نشاطاً وفعالية، وأكثر طموحاً، واتخاذاً للقرار، وأكثر رضى عن أنفسهم وحياتهم، وأكثر اجتماعية، وهم قليلو التشكي بشأن دراستهم وظروف حياتهم، وهم يتصفون بالانفتاح، وقلة القلق، ويشغلون أنفسهم بصورة دائمية بفعالية أو أخرى، وقلما يعانون من مشاكل نفسية، ويتضح من هذه الخصائص أن قصر النوم يتوافق عادة مع مقومات أفضل في الشخصية، ومع حياة نفسية واجتماعية وإنتاجية أفضل. ولهذا أن يدلل بأن النوم وإلى حد ما، هو أقل ضرورة أو فائدة لصاحبه مما كان يظن[١].

إنه ينبغي التعامل مع النوم ضمن حالة الحاجة والضرورة، وليس كهواية يستمتع بها الإنسان فيستكثر منها.

وما نراه عند البعض، من زيادة وقت نومهم أيام العطلة والإجازة، يعتبر ظاهرة سلبية، تحرم الإنسان من الاستفادة المناسبة من وقت فراغه.

(١) المصدر السابق، ص١٥٧.

ونجد في النصوص والتعاليم الدينية ما يؤكد أهمية التقليل من النوم، ويلفت نظر الإنسان إلى سلبيات الإكثار منه.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إياكم وكثرة النوم، فإن كثرة النوم يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة»[١] ومعنى الحديث واضح لأن كثرة النوم ستكون على حساب العمل الصالح والذي هو غنى الإنسان وثروته في الدنيا والآخرة.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ»[٢].

وعنه في حديث آخر: «كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا»[٣].

هدر الأوقات:

لضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه الزمن، وللتصور الخطأ عن وظيفة وقت الفراغ، فإن البعض يهدرون أوقاتهم خلال العطلة الصيفية والإجازات بشكل مؤسف، ويتحدثون بكل صراحة عن قتل وقت الفراغ. إما عبر جلسات فارغة، تستمر ساعات طويلة، دون فائدة أو قيمة، أو بالتسكع على أرصفة الشوارع والطرقات.

إن لقاء الأصدقاء والجلوس معهم أمر جيد، شريطة أن يكون ضمن

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٨٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

الحـدود الطبيعية، وأن يسـتثمر في تعميق أواصر المودة، والاسـتفادة الفكرية والعملية، بمناقشة موضوع مفيد، أو تنمية موهبة وكفاءة.

لكن جلسـات قتل الوقت تأخذ منحى آخر، إذ تطول ساعات دون مبرر، ولا يتخللها إلا كلام تافه، قد يكون سبباً للمشاكل والآثام.

التلقي السلبي:

أصبحـت وسـائل الإعـلام المتقدمـة، وتكنولوجيـا الاتصـالات المتطورة، كقنوات البث الفضائي، وشـبكة الإنترنت، تسـتهلك جزءاً كبيـراً من وقت الإنسـان المعاصر. وهي تفتح أفقاً معرفياً واسـعاً أمام الإنسان، وتقدم له خدمات عالية، آخذة في الاتساع.

وفي أيـام إجازات الدراسـة والعمـل يتضاعف الإقبـال على هذه الوسائل، حيث يقضي أمامها الكثيرون ساعات طويلة كل يوم.

وتتمثل سلبية التعاطي مع وسائل الإعلام والاتصالات في جانبين:

الأول: اسـتهلاك الوقت دون حدود، وعلى حسـاب سـائر المهام والأبعاد من شـخصية الإنسـان والتزاماته، حتى أشـار تقرير نشـر قبل عشر سنوات، إلى أن بعض الطلاب عندما يتخرج في المرحلة الثانوية يكـون قد أمضى أمـام جهاز التلفزيـون قرابة (١٥) ألف سـاعة، بينما لا يكـون أمضى فـي فصول الدراسـة أكثر من (١٠٨٠٠) سـاعة على أقصى تقدير، أي في حالة كونه مواظباً على الدراسة، محدود الغياب.

ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة (٦٠٠) ساعة سنوياً، بينما متوسط جلوسه عند التلفزيون (١٠٠٠) ساعة سنوياً[1].

وقد سبب الانجذاب غير المقنن إلى وسائل الإعلام والاتصالات، انخفاضاً في الأداء التعليمي، عند شريحة واسعة من الطلاب والطالبات.. كما سبب تدنياً في مستوى العلاقات العائلية، واهتمام الزوجين ببعضهما، واهتمامهما بالأبناء. ويحصل كثيراً أن تهمل الأم أطفالها، من أجل متابعة أحد الأفلام أو المسلسلات.

أما قراءة الكتب، وبرنامج التثقيف الذاتي، فقد أصبح في خبر كان، عند أكثر أبناء هذا الجيل، المستقطب إعلامياً ومعلوماتياً.

الثاني: أما الجانب الثاني فهو سوء الاختيار وسلبية التلقي، فهناك أكثر من ٥٠٠ قناة عالمية تبث مختلف البرامج ليل نهار، وهناك ملايين المواقع على شبكة الإنترنت، تعرض كل شيء دون حدود أو قيود، فإذا لم تكن للإنسان قيم وضوابط في اختياره لما يشاهد ويتابع، فإنه سيكون فريسة سهلة، ولقمة سائغة، للتوجهات الفاسدة، التي تحرّض الغرائز والشهوات، وتشجّع على العنف والإجرام، وتروّج لأنماط سلوكية مخالفة للمحيط الاجتماعي، وهي في مجملها أدوات للعولمة الثقافية، التي تريد إلغاء الهويات الحضارية لمختلف الشعوب والأمم، لتذويبها في بوتقة الحضارة الغربية المادية.

---

(١) العمر: الدكتور ناصر بن سليمان، البث المباشر حقائق وأرقام، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (الرياض: دار الوطن للنشر)، ص١٤.

إن الإنسـان ليحرص على صحة جسـمه فلا يتناول طعامـاً ملوثاً، فكذلك عليه أن يحرص على صحة فكره وسلوكه، فلا يتلقى المشاهد والتوجهات السلبية الضارة. يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه»(١).

وإذ يتمتع الإنسـان بنعمة السـمع والبصر من الله سبحانه وتعالى، فإنه يتحمل المسـؤولية تجاه طريقة اسـتخدامهما يقـول تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(٢).

الفراغ والانحراف:

إن من أسـوأ الظواهـر التي تنتج عن فـراغ العطلـة الصيفية، إذا لم تستثمر بالبرامج الصالحة، هي ظاهرة التصرفات الشاذة، والسلوكيات المنحرفة، في وسط الجيل الناشئ.

ذلك أن الشـعور بالفراغ يدفع لتقبل أي اهتمام، وعادة ما يصحب التوجهـات الخطأ إغواء وإغـراء، ولقلة النضج والخبرة عند الشـباب والمراهقين، يكون انزلاقهم سهلاً.

وتؤكـد الأبحـاث والتقاريـر، دور مشـاهدة الأفـلام والبرامـج

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج١، ص٢١٨.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

السيئة، في الاندفاع نحو الانحرافات الجنسية، وأعمال العنف، لدى المراهقين والمراهقات، كما أن استخدام شبكة الإنترنت، كثيراً ما يكون وسيلة إغواء يستجيب لها الشباب، وخاصة في فترة الفراغ، فيدخلون عبرها على مواقع إباحية، ويرتبطون بعلاقات ضارة.

ويذكر عبد الرحمن مصيقر في دراسته عن الشباب والمخدرات في دول الخليج العربي: أن دراسات أجريت في بعض الدول العربية عن متعاطي المخدرات تبين أن أغلبهم كانوا يشغلون بها وقت فراغهم(١).

ونقل باحث آخر، نتائج بعض الدراسات التي أجريت حول علاقة وقت الفراغ بالانحراف، وتوصلت إلى ما يلي:

أ. أن أغلبية الأفعال الانحرافية يرتكبها الفرد أثناء وقت الفراغ.

ب. أن نسبة كبيرة من الانحرافات ترتكب بقصد الاستمتاع بوقت الفراغ(٢).

إن حالة الهدوء والاستقرار في كثير من الأحياء السكنية، تتعرض للاهتزاز والاضطراب، عند أول يوم من أيام العطلة الصيفية، حيث يمارس عدد من الشباب هواية التفحيط بسياراتهم، والقيام بحركات بهلوانية حتى وسط الأحياء السكنية، ويمتطي بعضهم دراجات

(١) مصيقر: عبد الرحمن، الشباب والمخدرات في دول الخليج العربية، ص٦٦، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت.

(٢) السدحان: عبد الله بن ناصر، وقت الفراغ وأثره في انحراف الشباب، ص٢٢.

نارية ذات صوت مرتفع مزعج، وينتشر بعض الشباب في الطرقات والأماكن العامة، ليقوموا بتصرفات شاذة، منافية للأدب والاحترام.

وتحسب العوائل ألف حساب للسيطرة على أبنائها عند تعطيل الدراسة، كما تستعد الأجهزة الأمنية للتعامل مع ارتفاع معدّل الحوادث والجرائم والمشاكل السلوكية، خلال العطل والإجازات.

وليس مبالغة أن نقول: إن العطلة الصيفية تخرّج كل عام أفواجاً من الملتحقين بتيارات الفساد والانحراف ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «من الفراغ تكون الصبوة» أي الممارسات الصبيانية. وعنه عليه السلام: «إن يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة».

إن ذلك يؤكد مسؤولية الجميع في الاهتمام بالتخطيط السليم لوقت الفراغ، والعمل على احتواء واستيعاب الطلاب والطالبات خلال العطلة الصيفية، لمساعدتهم على استثمارها بما يخدم مستقبلهم ومصلحة الوطن.

لقد كان أرسطو على حق، وبعيد النظر حين رأى أن أهم أهداف التربية، هو تعليم الناس، كيف يستطيعون تمضية أوقات فراغهم، واستغلالها بصورة إيجابية ومفيدة.

بناتنا في طريق العلم

مهمة إعمار الأرض واستثمار الخيرات المودعة في الكون، موكولة للإنسان بشقيه الذكر والأنثى، فحينما يقول الله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] - أي طلب منكم وأوكل إليكم عمارة الأرض - وحينما يقول تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2]. فإن هذا الخطاب الذي جاء في القرآن الكريم مكررا وبصيغ مختلفة، موجه ليس إلى الرجال فقط وإنما هو عام لأفراد البشر رجالا ونساء.

ومن أساسيات القيام بهذه المهمة، والاضطلاع بدور إعمار الأرض، تحصيل العلم والمعرفة، فبالعلم يكتشف الإنسان قدراته، ويتعرف إلى ثروات الكون، ويبتكر وسائل وسبل استثمارها

(١) سورة هود: الآية ٦١.
(٢) سورة لقمان: الآية ٢٠.

والاستفادة منها.

وقد وهب الله تعالى قابلية المعرفة، وملكة الاستيعاب والتعلم للزوجين الذكر والأنثى، ولم يختص أحدهما دون الآخر، وذلك لكي تشارك المرأة الرجل في كسب العلم والمعرفة، وفي جهود التنمية والإعمار.

فالمرأة كالرجل توازيه في إنسانيته، وتشاركه في القيام بدور الخلافة، وتحمل مسؤولية عمارة الأرض، وقد منحها الله تعالى كالرجل نعمة العقل، وقدرة الإدراك والمعرفة، ولا تختلف عنه في كونها تملك استعدادا وقابلية تامة لإدراك الحقائق والمفاهيم، وتملك -كالرجل- القدرة على العلم والتعلم والسير في هذا الطريق إلى أقصى غاياته.

بل إن دماغ النساء يحتوي على خلايا الدماغ المسماة العصبونات بنسبة تزيد حوالي ١٠٪ عن دماغ الرجال، بالرغم من أن الرجال بصفة عامة أكبر حجماً من النساء وأدمغتهم كذلك أكبر حجماً[(١)].

وقد نشرت الدكتورة «كيمورا» الباحثة في الأسس العصبية والهرمونية للوظائف الفكرية -الذهنية- لدى الإنسان، وهي أستاذة في علم النفس في جامعة غربي أونتاريو، نشرت بحثا علميا حول

(١) الموسوعة العربية العالمية: الطبعة الثانية ١٩٩٩هـ، الرياض، السعودية، ج١٠، ص٣٦٦.

الفوارق في الدماغ بين الجنسين، أكدت فيه وجود تفاوت متبادل في بعض الجوانب والمهارات، حيث يقابل تفوق كل طرف في جانب تفوق الطرف الآخر في جانب آخر، وخلصت إلى «إن الفوارق الجوهرية بين الجنسين تكمن في الطرز المختلفة للمهارات الفكرية التي يتمتع بها كل منهما أكثر مما هو راجع إلى المستوى العام للذكاء (حاصل الذكاء) فمن المعروف أن هناك تفاوتا بين الناس في قدراتهم الذهنية: فمنهم من يبرع في الجوانب اللغوية ومنهم من يجيد الأعمال اليدوية، وهكذا يمكن لشخصين أن يتمتعا بمستوى واحد من الذكاء مع اختلاف في نمط المهارات التي يجيدها كل منهما»[1].

نساء رائدات:

وفي مختلف حقول العلم والمعرفة، وساحات الإنتاج والتنمية، هناك عطاء واسهام مميز قدمته نماذج نسائية رائدة، شاركت في صنع أروع الإنجازات العلمية والتكنولوجية.

ففي هذا العام، أسند كوفي عنان السكرتير العام للأمم المتحدة إدارة برنامج الأمم المتحدة لاستخدام الفضاء الخارجي للأغراض السلمية إلى البروفسورة الماليزية المسلمة «مازلان عثمان» عالمة الفلك المعروفة عالمياً.

(١) كيمورا: الدكتورة، الفوارق في الدماغ بين الجنسين، مجلة العلوم ـ الترجمة العربية لمجلة العلوم الأمريكية ـ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المجلد ١٠، العدد ٥، مايو ١٩٩٤م، ص٧٦.

و «مـازلان عثمان» أسـتاذة في أكاديمية العلـوم الماليزية، كما أنها أستاذة في المعهد الفيزيائي التابع للجمعية الملكية لعلوم الفلك، وفي المؤسسـة الماليزية للعلوم. وقد تقلدت مؤخراً الدكتوراه الفخرية من جامعة أوتاجو.

وبالإضافـة إلـى مناصبهـا الأكاديميـة والبحثيـة والدوليـة، فإنهـا متزوجة، وقد رزقها الله ولداً وبنتاً.

وحتـى تعيينهـا في المنصـب الجديد، عملت مديرة لقسـم العلوم والدراسـات الفضائيـة في ماليزيـا، وسـبق أن قامت بتدريـس العلوم الفيزيائيـة في جامعة أوتاجـو ودوندين في نيوزلندا، كما حصلت على منحـة لنبوغها؛ من جامعة كولومبو حصلت على إثرها على إجازة في العلوم الفلكية الطبيعية.

و أسـهمت في إنشـاء قسـم علوم الفضاء التابع للحكومة الماليزية، وشغلت منصب المديرة العامة للبرنامج الوطني الماليزي لعلوم الأقمار الصناعيـة الـذي تمكن مـن تصنيـع القمر الصناعـي الماليـزي (تيونج سـات١) الذي أطلق في مطلـع عام ٢٠٠٠ الحالي. وقـد ألفت العديد مـن الكتب والأبحاث في أبحاث الفضـاء والفيزياء، فضلا عن أبحاثها المتعلقـة بتحقيق التنمية المسـتدامة، وأسـهمت أيضا فـي جهود فريق الخبراء الماليزيين المختص بدراسة موجات الجاذبية في الفضاء[١].

(١) النـور: مجلة شـهرية، بيت التمويل الكويتي العدد١٨٤، ربيـع الآخر ١٤٢١هـ، يوليو ٢٠٠٠م.

ومن النماذج الرائدة المهندسة «زهاء حديد» التي تُعدُّ الآن أشهر المهندسين المعماريين العالميين وهي مسلمة عربية عراقية، وقد فازت على ٢٧٠ مهندساً عالمياً في تصميم بناء جسر لندن، واستهوتها الهندسة المعمارية منذ صغرها، لكن رئيس كلية الهندسة في بغداد رفض قبولها بعد إكمالها الثانوية، باعتبارها فتاة لا تصلح لمهنة الهندسة الرجالية ـ حسب رأيه ـ ونصح والدها أن تتوجه ابنته بموهبتها نحو الرسم، لكنها أصرت على طموحها، والتحقت بالكلية المعمارية في لندن، واحتلت فيما بعد لفترة سنة، كرسي الأستاذية في كلية الهندسة في جامعة هارفرد، وفازت على أشهر المعماريين الغربيين ـ (٥٣٨) مهندساً ـ بتصميم بناية (القمة) في هونغ كونغ عام ١٩٨٢م، كما فازت على ٩٧ مهندساً عالمياً بتصميمها لبناء متحف الفنون الحديثة في ولاية سينسيناتي الأمريكية[1].

الإقبال على التعليم:

ونلحظ لدى بناتنا رغبة جامحة و إقبالا كبيراً على التعليم، فعدد الطالبات في المملكة يزيد على المليوني طالبة، ويصل عدد الجامعيات منهن إلى أكثر من ١٢٦ ألف طالبة يدرسن في مختلف التخصصات العلمية والأدبية.

---

(١) الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، العدد ١٣٠٤٧ – ٢٣ نوفمبر١٩٩٨م، والعدد ١٢٣٠٨ – ٦ نوفمبر ١٩٩٦م.

ويتجلى هذا الشوق العلمي لدى بناتنا بتزاحمهن على التسجيل من أجل السبق بإحراز فرص الدراسة، حيث ضاق استيعاب الجامعات والكليات عن نسبة كبيرة منهن، وحتى من ذوي المعدلات الرفيعة ما فوق ٩٠٪.

كما يتحمّل قسم منهن عناء الغربة والابتعاد عن الأهل من أجل مواصلة الدراسة الجامعية. وبالطبع فإن ابتعاد الفتاة عن بيتها وأهلها يسبب لها مشاكل كثيرة ويضعها أمام تحديات صعبة.

ونأمل أن تتمكن الجهات المشرفة على تعليم البنات بعون الله تعالى في المستقبل القريب من زيادة قدرة الاستيعاب للراغبات في الدراسة الجامعية، ومن توفير فرص الدراسة للبنات في مناطقهن، فذلك أيسر لهن وادعى للحفاظ على أجواء الصلاح والالتزام.

تحديات الاغتراب:

في الوقت الذي نقدر فيه لبناتنا رغبتهن وشوقهن للدراسة حتى ولو استلزمت عناء الغربة ومشاق السفر، فإننا نلفت النظر إلى التحديات التي تواجه الفتاة حينما تبتعد عن أهلها، وتقيم في منطقة أخرى لمواصلة دراستها، وذلك من أجل أن تأخذ الفتاة استعدادها لمواجهة هذه التحديات، وأيضا لكي تقوم العائلة والمجتمع بالدور المطلوب لمساعدتها في تجاوز هذه المرحلة المهمة. صحيح أن المواطن ما دام في ربوع وطنه، وتحت رايته الخفّاقة لا يُعدُّ غريبا، لكن مفارقته

لمنطقته ومجتمعه وأهله هو نوع من الغربة.

واغتراب الفتاة للدراسة الجامعية يأتي في فترة حساسة من حياتها، حيث تكون في أوج مرحلة المراهقة، وذروة نضجها الجسمي والعاطفي مما يجعلها بأمس الحاجة الى أجواء الرعاية والتوجيه، تماماً كأخيها الشاب الذي يعيش الحالة نفسها في مرحلة شبابه.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأجواء الإعلامية المفتوحة، من قنوات فضائية، وشبكات الإنترنت، ومختلف وسائل الاتصالات الإعلامية والثقافية، التي تمارس التحريض للشهوات، والإثارة للأحاسيس والعواطف، وخاصة لجيل الشباب والشابات. واذا ما علمنا ان هناك عناصر شريرة فاسدة تتحين الفرص بأعراض الناس، وتستخدم وسائل الإغراء والخداع لتحقيق رغباتها السيئة. حينئذٍ ندرك مدى التحدي الذي تواجهه بناتنا المغتربات.

لذلك نلفت أنظارهن إلى الملاحظات التالية:

أولاً . التركيز الدراسي والعلمي:

فالهدف يجب أن لا يكون مجرد الحصول على شهادة، أو الوصول الى وظيفة، بل ينبغي أن تبذل الفتاة قصارى جهدها لكي تستوعب موادّ دراستها، وأن تكون متفوقة في مستواها، وأن تفكّر في مواصلة دراساتها العليا، لتصل الى مستوى العطاء والإنتاج العلمي.

وقبل فترة تحدثت الصحف عن طالبة سعودية طموحة «حياة

سندي» التي كانت تدرس الطب في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ثم التحقت بجامعة كامبردج في لندن، وأثارت أساتذتها بنبوغها واجتهادها وابتكاراتها العلمية، فقدمت لها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عروضاً للعمل معها، وأصبحت أول عربية تحظى بمنحة دراسية من جامعة كامبردج لتحصيل درجة الدكتوراه في التكنولوجيا الحيوية، كما كانت أصغر طالبة ترسلها الجامعة بعد أربعة اشهر فقط من بدء الدراسة فيها لحضور مؤتمر علمي فازت فيه بأفضل التقارير من الحاضرين على مساهمتها هناك[1].

إن كل طالبة من بناتنا تمثل مشروعاً للتفوق والتقدم، شريطة توفّر الطموح، والاهتمام الجادّ بالدراسة والعلم، ومادامت البنت تدفع ثمناً كبيراً من راحتها الجسمية والنفسية في تغرّبها للدراسة، فعليها ان تأخذ في المقابل أكبر قدر من الفائدة والكسب، ولا ترضى بإضاعة وقتها في الأشياء الثانوية والتافهة.

ثانياً . التكيّف الاجتماعي:

اختلاف نمط الحياة الاجتماعية من الوسط العائلي الى الوسط الجامعي، يعتبر من التحديات الصعبة التي تواجه الفتاة، فبعد أن كانت تعيش مع عائلتها ضمن جو مألوف لديها، تتلقى فيه كل رعاية وعون، تنتقل الى سكن داخلي في الجامعة، أو ضمن مجمّع للطالبات، لتجد

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية، لندن، ١٠/ ٢ / ١٩٩٩م.

نفسها في وسط جديد، تحتاج فيه إلى الاعتماد على نفسها، وإلى التكيّف مع العناصر الجديدة من زميلاتها في السكن والجامعة اللاتي قدمن من بيئات مختلفة، في بعض عاداتها وتقاليدها وأنماط حياتها وأساليب تعاملها، وعلى الفتاة هناك أن تكون في مستوى التحدي، فتتحلى بسعة الصدر، ورحابة النفس، وتستوعب هذا المتغيّر الاجتماعي في حياتها، فتعتمد على ذاتها، وتقابل مدرساتها وزميلاتها والعناصر الإدارية المرتبطة بدراستها أو سكنها بأخلاق طيبة، واتزان سلوكي.

وقد سمعت من العديد من إدارات المجمعات السكنية للطالبات خارج المنطقة، ومن بعض الطالبات شكاوى كثيرة ترتبط بموضوع العلاقات الشخصية بين الطالبات اللاتي يشتركن في غرفة واحدة أو سكن واحد، إن على كل واحدة أن تقدّر ظروف الأخرى، وتتفهم أوضاعها النفسية في هذه المرحلة الصعبة، وتمدّ لها يد العون والدعم، وأن تتحمل ما قد يصدر منها من هفوات وأخطاء.

ثالثاً. الالتزام الأخلاقي والسلوكي:

وهو أخطر تحد تواجهه الفتاة المغتربة، حيث تنقطع عنها رعاية وإشراف أسرتها ولا تشعر برقابة اجتماعية، وقد تصحبها زميلات غير متزنات، أو تحيط بها أجواء غير صالحة، فإذا كانت تمتلك الوعي الديني، والنضج في الشخصية، فإنها ستتمسك برزانتها وكرامتها،

وهذا ما نرجوه لكل بناتنا العزيزات.

لأن الخيار الآخر وهو الاستجابة للإغراءات، والانطلاق مع الأهواء والشهوات سيكلف الفتاة عزها ومستقبلها وستدفع هي الثمن الباهظ لا سمح الله.

فلتحفظ الفتاة دينها وشرفها، ولتكن في مستوى ثقة أهلها بها، ولا تضيع تربيتهم لها، ولا تشوّه سمعة المجتمع الذي تنتمي إليه، فإن البعض من الناس إذا رأى تصرفات شاذة ولو من عناصر قليلة، فإنه يأخذ من ذلك انطباعاً سيئاً عن كل المجتمع والمبدأ الذي تنتسب إليه هذه العناصر، وكما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا»[1].

إشراف العائلة:

مهما كانت ثقة العائلة بابنتها، وبإدارة المجمّع الذي تسكنه، فإن ذلك لا يغني عن تواصل العائلة وتفقدها لشؤون البنت، فتواصل العائلة يوفر زخما عاطفيا للبنت ويرفع معنوياتها أمام ما قد يواجهها من مشاكل، ويؤكد في نفسها دائما حالة الارتباط العائلي وما تعنيه من قيم وشيم، وكذلك فإن تواصل العائلة مع إدارة المجمّع السكني يشعر المسؤولين فيها باهتمام العوائل ببناتهم، وإذا ما تلّقت إدارة المجمّع اتصالات منتظمة من عائلة ما لتفقد شؤون ابنتهم، وللتأكيد على

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣١٠.

رعايتهـا، فإن ذلك يشـجعهم على الانتباه والالتفـات أكثر لأوضاعها وللعناية بها.

وقد أكدّ هذه الحقيقة أكثر من مسؤول في إدارة مجمعات الطالبات، كانـوا يتعجبـون مـن أن كثير مـن العوائل تهمـل بناتهـا، ولا تبدي أي اهتمـام يذكـر تجاه إدارة المجمّـع، بل ولا يتفاعلـون مع الملاحظات التـي تقدم لهـم عن وضع البنت أو سـلوكها، وقد تأخـذ العائلة موقفا سلبيا من المجمّع إذا أبلغت بأي ملاحظة.

وتواصل العائلة يكون عبر زيارة الأب أو الأم أو أحد المعنيين بأمر البنت، ولو مرة في السـنة الدراسية، ليتعرفوا عن قرب على أوضاعها، والأجواء التي تعيشها هناك.

أو على الأقل بالاتصال التلفوني معها ومع إدارة المجمّع لمناقشة أمورها، وإبداء الاهتمام والرعاية لها.

إلى إدارة المجمّعات:

وجـود مجمّعـات سـكنية للطالبات أمر جيـد، وأفضـل بكثير من السـكن في شقق مستقلة متناثرة، وخاصة إذا كانت إدارة المجمّع تعي مسـؤوليتها الدينية والاجتماعية، ولا تتعامل مع المسألة كمورد للربح والكسب المادي فقط.

إن المسـؤولين فـي هـذه المجمّعـات وهـم مـن أبنـاء المجتمع،

عليهم أن يدركوا أن هؤلاء الطالبات أمانة في أعناقهم، وأن الله تعالى سيحاسبهم على كل تقصير تجاههن، إن البنت في هذه المرحلة من العمر، وفي ظروف الغربة، ومع ضغوط الدراسة وأعبائها، تحتاج إلى الكثير من الدعم والمساعدة، خاصة وأن الظروف قد لا تسمح لها بالاعتماد على نفسها في الحركة خارج السكن.

إن الشاب حينما تصيبه وعكة صحية، أو يحتاج إلى الطعام أو أي خدمة أخرى، بإمكانه أن ينزل إلى الشارع يستقلّ أي سيارة أجرة وفي أي وقت، لكن البنت لا تستطيع ذلك، من هنا فإن على إدارة المجمّعات توفير أكبر قدر ممكن من الخدمة للطالبات.

كما أن التعامل مع مشاكلهن يجب أن يتصف بالمرونة والتفهّم، فهن من عوائل مختلفة، وطباع وأمزجة متفاوتة، على الإدارة أن تستوعب كل ذلك برحابة صدر، وسعة أفق.

ونظرا لحساسية وضعهن كفتيات في هذه المرحلة من العمر، يجب العناية في اختيار العناصر الصالحة الملتزمة من الموظفين القائمين على شؤونهن من سائقين ومسؤولين.

كما ينبغي توفير الأجواء الصالحة، والبرامج المفيدة لنشر الوعي والتوجيه الديني والاجتماعي لهن، وإذا ما واجهت الطالبة أي مشكلة دراسية أو سلوكية، فعلى إدارة المجمّع الاهتمام بذلك، والتفكير في المساعدة بحكمة وإخلاص.

إن تعاليم الإسلام تحث على التعاون وقضاء الحاجة، وتقديم النصيحة، وتوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، والتعامل مع أوضاع الطالبات هو من أفضل وأجلى موارد انطباق تلك العناوين والتعاليم الإسلامية.

بقي أن نهيب بكل المخلصين الواعين في المجتمع ممن يستطيعون تقديم أي خدمة لمساعدة بنات وطنهم ومجتمعهم، في تخطي هذه المرحلة الحساسة بخير ونجاح، فإن عليهم أن لا يتوانوا في ذلك. إن زيارة أي عالم ديني، أو شخصية اجتماعية واعية، للمجمّعات السكنية للطالبات لها أثر طيب ووقع جميل في نفوسهن، وكذلك إيصال وسائل الإرشاد والتوجيه من كتب ومحاضرات نافعة.

الاستهلاك و عادات الإسراف

تنافس رهيب وسباق محموم على مستوى العالم بين الجهات المصنّعة المنتجة، يغرق الأسواق بألوان السلع والخدمات، لمختلف احتياجات الإنسان ورغباته، ففي كل مجال من المجالات، تجد أمامك خيارات عديدة متنوعة قد يتعبك استقصاؤها، وتستعين الجهات العالمية المنتجة بخبراء ومراكز بحوث ودراسات، لتطوير إنتاجها كمّاً وكيفاً، من أجل توسيع رقعة أسواقها الاستهلاكية، ولتعزيز مداخيلها وموقعها الاقتصادي.

وتؤدي أجهزة الإعلام دوراً كبيراً في خدمة أغراض التسويق عبر أساليب دعائية إعلانية تتفنن في الإغراء واستقطاب الزبائن المستهلكين.

وحتى السياسة أصبحت توظّف لصالح كبريات الشركات ومصانع الإنتاج، حيث يعمل الزعماء السياسيون للدول الصناعية، من أجل

فتح الأسـواق، أمـام منتجات بلادهـم، وقد يمارسـون الضغوط على الـدول الأخرى بهـذا الاتجاه، ومن أبرز الأمثلـة المعاصرة الخلافات التي وقعت بين الولايات المتحدة الأميركية من جهة واليابان والصين من جهة أخرى، لإلحاحها على الدولتين لفتح أسـواقهما أمام السـلع الأميركية. لقد أصبح الاستهلاك والتسويق أهم قضية اقتصادية يُتوجه إليها، فالاستهلاك وقود الإنتاج ومحرّك الاقتصاد، فلكي تستمر حركة التصنيع والإنتاج وتتطور لا بد من أسـواق تسـتهلك، وزبائن تشتري، والإنتاج أصبح رهيباً وضخماً للغاية على المستوى العالمي، ويحتاج إلى تصريف واسع.

لذا يكون التنافس شـديداً على الأسواق، وتبتكر مختلف الوسائل والأسـاليب لتشـجيع الاسـتهلاك، من إقامة المعـارض، ومهرجانات التسـوّق، وإعلان مواسـم لتخفيض الأسـعار والخصومات، وإعطاء الجوائز والمكافآت على السـحب، إضافةً إلى الدعايات والإعلانات المسـتمرة، التي تخلق دوافع الاسـتهلاك، وتصنـع الرغبات، وتفتعل الاحتياجات في نفوس المستهلكين.

ولأن الكثيرين من الناس وخاصة في الدول النامية، قد لا يمتلكون السـيولة النقدية، التي تسـتجيب لرغبات الاسـتهلاك، فقد استحدثت معالجـات لهذه الإشـكالية، عـن طريق البنـوك التي تقـدم القروض، وعبر «الفيزا كارت»، وبواسطة البيع بالأقساط.. كل ذلك لدفع الناس للشراء والاستهلاك، لتسـتمر ماكينة الإنتاج والتصنيع، ولتزيد ثروات

وأرباح أصحاب رؤوس الأموال وخاصة أرباب الشركات الكبرى.

أرقام ودلالات:

وتشكل مجتمعاتنا الخليجية سوقاً استهلاكيةً مغرية، تسعى كل جهة منتجة لأخذ حصتها المناسبة منها، وتثبيت أقدامها في وسطها، ليس لكثافة سكانية في هذه المنطقة، وإنما لتوفر السيولة المالية فيها، ولسهولة التأثير على أنماط الحياة المعيشية للمجتمع، بما يخدم مصلحة المنتجين، فإنسان هذه المنطقة لا يحتاج إلى جهد كبير لإقناعه بشراء أي سلعة، ولا يتشدد كثيراً في المواصفات، ولا يجادل غالباً حول القيمة والسعر.

ولو ألقينا نظرة سريعة على بعض الأرقام المتوفرة عن النشاط الاستهلاكي في المنطقة، وخاصة حول بعض السلع الكمالية والرفاهية، لأدركنا الأهمية التي توليها الجهات المنتجة المصنّعة للتسويق في هذه المجتمعات كما تظهر لنا دلالات التوجهات الاستهلاكية لدى المواطنين.

ففي مجال الأثاث: يقدر معدل النمو السنوي لسوق الأثاث في السعودية بنحو ٤٪، ويبلغ حجم هذه السوق ما يزيد على ٣ بلايين ريال (٨٠٠ مليون دولار). وحجم إنفاق الأسر السعودية على الأثاث يسجّل ارتفاعاً مستمراً، حيث يزيد على ٣٪ من الدخل السنوي للأسرة وفقاً لدراسات السوق، وتغيّر الأسر السعودية المتوسطة الدخل أثاثها

كل ٥ إلى ٧ سنوات، فيما تنخفض المدة للأسر الأكثر دخلاً، والتي تغير أثاثها كل ٣ إلى ٥ سنوات.

ورغم أنّ عدد مصانع الأثاث السعودية يبلغ نحو ١٣٤ مصنعاً تنتج ما يزيد على ٣٥ ألف طن من الأثاث سنوياً إلاّ أنّها لا تغطي إلاّ ما نسبته ٣٥٪ من حاجة السوق المحلية، والباقي يستورد من الخارج[١].

وأشار تقرير آخر إلى أنّ واردات دول الخليج من الأثاث سنة ١٩٩٦م بلغت ٢,٥ بليون دولار، وأظهرت تقديرات تجارية أن واردات دولة الإمارات من الأثاث وتوابعها بلغت عام ٩٥م ٥٩٣ مليون دولار، وبلغت قيمة واردات الكويت ٤٩٤ مليون دولار، وسلطنة عمان ١٢٩ مليون دولار، والبحرين ٩٥ مليون دولار، وقطر ٦٣ مليون دولار[٢].

الملابس: حجم سوق الملابس الرجالية في السعودية يتجاوز أربعة بلايين ريال سنوياً (١,٠٦ بليون دولار) منها بليون ريال (٢٧٦ مليون دولار) حجم سوق الشماغ والغترة فقط[٣].

العطور ومستحضرات التجميل: أظهرت دراسة اقتصادية أنّ إنفاق المستهلك الخليجي على العطور ومستحضرات التجميل، تعتبر من أعلى معدلات الاستهلاك في العالم. وقدرت حجم واردات مجلس

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٠م.
(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٧هـ.
(٣) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٠م.

التعاون الخليجي منها بنحو٨١٧ مليون دولار سنة ٩٥م. وأشارت الدراسة التي أعدها مصرف الإمارات الصناعي إلى أنّ دول الخليج استوردت سنة ٩٥م نحو ١٩٠ ألف طن من العطور ومواد التجميل إلى جانب إنتاجها المحلي البالغ ٦٥ ألف طن.

قيمة واردات السعودية منها ٢٥٠ مليون دولار، والإمارات ١٩٠ مليون دولار.

ولاحظت الدراسة تزايد استهلاك العطور ومستحضرات التّجميل بصورة مطّردة مع ارتفاع مستويات المعيشة، واتساع القاعدة الاجتماعية للفئات ذات الدخل المتوسط في دول مجلس التعاون الخليجي[1].

وذكرت مجلة اليمامة السعودية ضمن تحقيق لها عن (المرأة في السعودية واستهلاك أدوات التجميل) أنه خلال عام ١٩٩٥م استهلكت النساء في السعودية ٥٣٨ طناً من أحمر الشفاه، و٤٣ طناً طلاء الأظافر، و٤١ طناً من مزيلات هذا الطلاء!! و٢٣٢ طناً من مستحضر تجميل العيون، وصباغة الشعر ٤٤٥ طناً[2].

الذهب والألماس: تُعدُّ السعودية ثالثة أكبر سوق عالمية للذهب تقدر قيمتها ٣ بلايين دولار سنوياً، وقدّر مسؤول في شركة (دي بيرز)

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٢/ ٦/ ١٤١٦هـ.
(٢) اليمامة: مجلة سعودية تصدر أسبوعيًا، العدد ١٤٤٩- ٢٠/ ١١/ ١٤١٧هـ، ص٢٢.

أكبر شركة للألماس في العالم حجم سوقه ـ عدا بقية الشركات ـ في منطقة الخليج بأكثر من بليون دولار سنوياً. وقال إن الطلب على الألماس في منطقة الخليج يُعدُّ من الأعلى في العالم(١).

السيّارات: تنفق السعودية ما يصل إلى ١٣ بليون دولار في سوق شراء السيّارات، وقطع الغيار سنوياً، ما يجعلها أكبر سوق للسيّارات في الشرق الأوسط، حيث تستورد السعودية أكثر من ٢٧٥ ألف سيارة سنوياً تقدر قيمتها بأكثر من ٩, ١٠ بليون دولار إضافة إلى سوق قطع الغيار والإكسسوارات التي يقدر حجمها بنحو ٢, ٢ بليون دولار(٢).

المشروبات الغازية: ارتفع حجم السوق السعودية في قطاع المشروبات الغازية إلى أكثر من بليون دولار سنويًا(٣).

هذه نماذج وأمثلة بسيطة عن توجهات وارتفاع وتيرة الاستهلاك في مجتمعاتنا.

بين الإنتاج والاستهلاك:

في الدول الصناعية يكون الاستهلاك عملية متكاملة مع الإنتاج، وموازية له، فالفكرة هناك أنه لكي تنتج وتصنع أشياء جديدة لا بد من وجود قدرة عالية على الاستهلاك، بل إن الإنتاج عندهم يفيض على

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٧ شوال١٤١٧هـ.
(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠م.
(٣) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١ مايو ١٩٩٨م.

الحاجة الاستهلاكية لديهم في غالب مجالات التصنيع، لذا يتجهون إلى التصدير، ويبحثون عن أسواق الاستهلاك خارج بلادهم.

لكن مشكلة بلداننا أن الاستهلاك عملية قائمة بذاتها لا ترتبط بالإنتاج، ولا تتجه لتشجيع الإنتاج الوطني.

إنّ الفرد في مجتمعاتنا يلهث خلف الاستهلاك لكنه ضعيف الإنتاجية والفاعلية، وقبل فترة أشارت دراسة أعدتها لجنة علمية أميركية تحت عنوان (في مواجهة المستقبلات) إلى أنّ الإنتاج الخام للفرد في الدول الصناعية عام ١٩٧٥م كان ٣٠٠٠ دولار ويصل في عام ٢٠٠٠م إلى ٨٠٠٠ دولار، بينما لم يتعد إنتاج الفرد في الدول النامية عام ١٩٧٥م ٢٩٠ دولار، ويصل عام ٢٠٠٠م إلى ٨٦٠ دولار، أي إنّ النسبة بين إنتاجية الفرد هناك وإنتاجية الفرد هنا من واحد إلى عشرة تقريباً!!

إنهم يستهلكون ما ينتجون فيتقوى اقتصادهم، وتتنشط دورته، بينما نبالغ في استهلاك ما ينتجه الآخرون فتتبدد ثرواتنا وإمكانياتنا.

ولو كانت لدينا خطط وأطروحات لاستقطاب جزء من السيولة التي في أيدي المواطنين باتجاه مشاريع الإنتاج والعمل والتصنيع، لكنّا في مستوى أفضل.

كما أننا بحاجة لتشجيع الإنتاج الوطني، بدل التهافت على الاستيراد واقتناء السلع الأجنبية.

التخطيط في الإنفاق:

فـي المجتمعات التي يتوفر لأبنائها وعـي اقتصادي حياتي، يعتمد كل فـرد لـه ميزانيـة سـنوية، وفق مسـتوى دخلـه، وحسـب أولويات احتياجاتـه، فيحـدد نسـبة مـن دخله لكل مجـال من مجـالات حياته، فللتعليم كذا في المئة، وللصحة كذا، وللغذاء كذا وهكذا.

وعادة ما تخصص نسـبة للادخار لمواجهة الحالات الطارئة، التي انطلقت منها شركات التأمين في المجالات المختلفة.

وعلى أساس هذا التخطيط يكون هناك توازن بين الدخل والإنفاق، كما تعطى الأولوية للحاجات الأساسـية، وتأتي الكماليات في مرحلة تالية.

أمّا في مجتمعاتنا فنادراً ما تجد مثل هذا التوجه، لذا يعاني الكثيرون وخاصـة من أصحـاب الدخـل المحـدود، أوضاعاً اقتصاديـة صعبة، حيـث تتبخر مدخولاتهم بسـرعة، ولا يتمكنون مـن ترتيب أوضاعهم المعيشية، لافتقادهم التخطيط.

كتـب أحدهـم رسـالة لجريـدة عـكاظ هي أنمـوذج يحكـي حالة الكثيرين ومما جاء فيها: أنا شـاب متزوج ولديّ طفلة صغيرة، وأعمل في وظيفة محترمة، وأتقاضى راتباً يبلغ تسـعة آلاف ريال شـهرياً، وما أن يأتي آخر الشهر لا أجد ريالاً في جيبي، ومشكلتي تكمن في عجزي عـن ادخار أي مبلـغ ينفعني في الأيام الصعبة، ويسـاعدني على تأمين

مستقبل جيد لأولادي، عجزت عن شراء متر أرض واحد أو بناء منزل لي ولأولادي..»[1].

إنّ إنفاق الإنسان يجب أن يكون في حدود دخله، وصرفه يجب أن يكون ضمن ميزانية يعتمدها بدراسة وتفكير، لا أن يصبح دخله في مهب رياح الدعاية والإعلان، وتحت تأثير الرغبات الاستهلاكية الارتجالية.

عادات الإسراف والتبذير:

لقد تحول الإسراف والتبذير والمبالغة في الاستهلاك إلى عادات وأعراف حاكمة في مجتمعاتنا.

فأطفالنا يتربون من صغرهم على حب الاستهلاك، فتعطى لهم النقود دون حاجة، ويتعلمون على الاستمتاع بالشراء، لمجرد الشراء وإن كان لشيء لا يفيدهم، بل قد يكون ضاراً لهم. وترى في حالات كثيرة حينما يبكي الطفل ويريد أهله تهدئته يقال له خذ ريالاً أو خمسة أو عشرة واذهب إلى البقالة!! في مقابل ذلك تشجّع بعض العوائل في المجتمعات المتقدمة أبناءها منذ صغرهم على فتح حسابات للادخار، وتعلّمهم كيف يفكرون فيما يشترون قبل أن يشتروا.

وعلى المستوى العام فالتسوّق والشراء لم يعد تلبية لحاجة في

---

(١) عكاظ: جريدة يومية سعودية، ٢٤ مارس ١٩٩٧م.

حياة العائلة، بل أصبح برنامجاً للترفيه والتمتع، فيذهبون إلى السوق ليس لشراء حاجات معينة يريدونها، وإنما يتجولون في المحلات التجارية لتنخلق عندهم الحاجة ورغبة الشراء، فالاستهلاك بحد ذاته مصدر لذة وارتياح.

كما تعوّد الناس على أن يشتروا الأشياء بالكميّات، وحتى فيما يسرع إليه التلف، فيحمّلون أنفسهم نفقات التخزين و التبريد، ويخسرون قسماً كبيراً منها بالخراب والتلف، ذلك أن الواحد منّا يستحي أن يشتري بالكيلو أو الحّبة الواحدة!!

بينما ترى في أميركا وأوروبا أنّ العائلة تشتري بضع حبات من البرتقال أو التفاح وجزءاً من حبة البطيخ وما أشبه.

وعاداتنا في الأكل والشرب قائمة على الإسراف والتبذير غالباً، وخاصة في الولائم والمناسبات العامة، حيث يقدم لشخصين أو ثلاثة صحن طعام ممتلئ يكفي لعشرة أشخاص، فيتناولون منه مقداراً يسيراً، ويرمى الباقي!! وهي حالة مألوفة معروفة.

وتحكي أرقام وزن النفايات المنزلية صورة عن مستوى الإسراف والتبذير، فقبل سنوات أشارت دراسة نفذها المعهد العربي لإنماء المدن بعد مسح شامل لحوالي ١١١ مدينة عام ١٩٨٦م، إلى أنّ النفايات المنزلية في ٢٩ مدينة في دول مجلس التعاون الخليجي تشكل ٧٩٪ من المجموع العام للنفايات المختلفة، وهذه النسبة تُعدُّ

من أعلى النسب في كل دول العالم. ويلقي الفرد في مدينة الرياض نحو ٢٠٠٠ غرام من النفايات العامة يومياً!![1]

في بعض الدول الأوروبية تجمع القمامة والنفايات المنزلية يومين في الأسبوع، أمّا عندنا فهي تجمع يومياً، بل يلاحظ أنها تزيد على استيعاب البراميل المعدّة لها.

كما أصبح الاستهلاك ميداناً للتفاخر والتباهي، فاختيار نوع السيارة أو أثاث المنزل، أو طريقة احتفال الزواج في هذه الصالة أو تلك، وبهذا الشكل او غيره، لا يتم نتيجة اختيار موضوعي وانما لتسجيل نقاط في مجال التفاخر والتباهي، ومحاكاة لذلك الشخص او تلك الجهة.

إننا ندفع ثمناً باهضاً لهذه العادات السيئة، فأولاً: غضب الرب سبحانه وتعالى الذي نهانا عن الإسراف والتبذير، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]. ويقول تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[3].

وثانياً: ترهقنا بأعبائها، حيث يجد الواحد نفسه منساقاً لمماشات هذه العادات والأعراف، مع عدم قدرته وضعف إمكانياته، فيتحمل الديون والقروض، ويتعرض للإحراج والمشقة، كما تتعرقل بسببها

(١) قافلة الزيت: مجلة شهرية ـ شركة أرامكو السعودية، ص٤٠، ربيع الأول ١٤١٦هـ.
(٢) سورة الأعراف: الآية٣١.
(٣) سورة الإسراء: الآية٢٧.

متطلبات وحاجات الحياة، وتنتج المشاكل العائلية والاجتماعية.

فالزواج أصبح يتطلب كلفة كبيرة، ومراسيم العزاء عند الوفاة تحتاج مبالغ طائلة، وتقديم الهدايا عند الولادة من قبل المرأة لصديقاتها يستلزم ميزانية باهظة...

دعوة إلى الترشيد:

لم تكن مجتمعاتنا تعيش مثل هذه الحالة الاستهلاكية في الماضي، وحتى لدى الطبقات الثرية والمتمكنة، لكن توفر السيولة في الأيدي، والتأثر بوسائل الإعلام والدعاية، هو الذي شجع على عادات الترف والإسراف. لكن الوضع الاقتصادي الآن أصبح ضاغطاً على الأكثرية الساحقة، فالحاجة ماسّة لتغيير أنماط الاستهلاك السائدة، وترشيدها بما يتناسب مع ارتفاع مستوى المعيشة، ومحدودية المداخيل. ومع أنّ الناس جميعاً يتبرمون من هذه العادات الضاغطة المرهقة، إلاّ أنّهم يخضعون لها ويتقيدون بها، خوفاً من الانتقاد والاتهام بالبخل.

والمطلوب تجاوز هذا الإحساس المضخّم، وأن تبدأ مبادرات الترشيد على مستوى الإنفاق الخاص، وفي المناسبات العامة، وإذا ما تعددت هذه المبادرات، فسوف تخلق عادات جديدة راشدة يقبل عليها الكثيرون. ولنضع نصب أعيننا الحديث الوارد عن الإمام موسى الكاظم ﷺ عن الإسراف قال ﷺ: «هو يرفع صاحبه في الناس ويضعه

عند اللّٰه»[1].

ونشير هنا إلى أهمية الإستجابة للدعوة التي يطرحها علماء الإسلام في مقاطعة البضائع والسلع الأميركية، فإنها بالإضافة إلى ما تعنيه من تضامن مع إخوتنا الفلسطينيين المقاومين للاحتلال الإسرائيلي، ومن إعلان الغضب والسخط على الموقف الأميركي الجائر المنحاز للصهاينة، بالإضافة إلى ذلك فهي نوع من التوجه لترشيد الاستهلاك، حيث يراجع الإنسان عقله فيما يريد أن يشتريه، ويأخذ بعين الاعتبار جهة الإنتاج، وموقفه تجاهها.

(١) الريشهري: محمدي، ميزان الحكمة، ج٤، ص٤٤٥.

الفصل الثاني

مواجهة التحديات

- المشاكل بين الآهات والمعالجات
- مصاعب الحياة بين الانفعال والاستيعاب
- العوائق بين الإحباط والفاعلية
- قلق الاختبارات

المشاكل بين الآهات والمعالجات

يـودّ الإنسـان أن يعيـش حياته دون مشـاكل أو صعوبـات، وأن لا تعترض طريقه عوائق وعقبات، بيد أن القسم الأكبر من المشاكل التي يواجهها إنما تنبع من ذاته، وتحصل بسبب نواقصه وأخطائه، وبإمكانه تجاوزها بمزيد من المعرفة والاستقامة والاجتهاد.

وهذا ما تشـير إليه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحمّل الإنسـان فـرداً ومجتمعـاً، مسـؤولية مـا يقـع عليـه مـن نكسـات وآلام، يقـول تـعالى: ﴿وَمَـا أَصَابَكُـمْ مِـنْ مُصِيبَـةٍ فَبِمَـا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُـمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيـرٍ﴾[1] أخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسـن قـال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ قال: «والذي نفسي بيده ما من خدش عود، ولا اختـلاج عرق، ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

عز وجل عنه أكثر»[١]. والذنب يشمل كل مخالفة لأحكام الشريعة أو قوانين الطبيعة.

وهناك قسم من المشاكل تقتضيها حكمة الحياة، فإن الإنسان ينطوي على مخزون من القدرات والطاقات، ويحتاج إلى دوافع وحوافز تستثير إمكاناته، وتستنهض قواه، وغالباً ما تؤدي المشاكل والتحديات هذا الدور في حياة الإنسان، فالحاجة أُمّ الاختراع، والمشكلة تدفع إلى التفكير والحركة، وما الاختراعات العلمية، والإنجازات الصناعية، في مختلف المجالات، إلا استجابة من الإنسان للتحديات التي شعر بمواجهتها، وعاش تحت وطأة ضغوطها.

لقد هيأ الله تعالى للإنسان في هذه الحياة كل أسباب السعادة والكمال، حتى لا يعاني حاجة أو نقصاً، لكن ذلك مشروط بحركة الإنسان وسعيه، وبالسعي والحركة تتفجر طاقاته، وتنصقل شخصيته، وتتسع مداركه وآفاقه، إلى جانب توفير متطلباته وتحقيق طموحاته.

وبالتالي فإن لكل مشكلة حلاً، ولكل داء دواءً، وما على الإنسان إلا الاجتهاد في التفكير، والجد في الحركة والعمل، ليصل إلى ما يريد، فبعض المشكلات تحتاج معالجاتها إلى مستوى أعلى من النشاط، وبعض التحديات تستوجب بذل درجة أكبر من الجهد.

وكمثال على ذلك فإن أمراضاً كانت تفتك بالإنسان وتودي

(١) الألوسي: السيد محمود، تفسير روح المعاني، ج٢٥، ص٤١.

بحياته، لكن كفاح العلماء المتواصل مكّن الإنسانية من التغلب على خطرها، عبر التلقيح وأدوية العلاج كالجدري والحصبة والملاريا وأمثالها. وهكذا في مجال مقاومة الحر والبرد حيث صنع الإنسان وسائل التكييف والتدفئة، وفي مجال المواصلات والاتصالات وغيرها. فإن كل الاختراعات والاكتشافات، كانت من وحي الحاجة ومواجهة المشكلة.

ولتأكيد هذه الحقيقة ورد عن رسول الله ﷺ قوله فيما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عنه: «إن الله تعالى لم ينزل داءً إلا أنزل له دواءً علمِه من علمه، وجهله من جهله إلا السأم وهو الموت»[١] وقال الإمام علي عليه السلام: «لكل علة دواء»[٢].

هكذا يكون وجود المشاكل طريقاً لتفعيل قدرات الإنسان، وتنمية طاقاته. وحتى الأنبياء والأولياء المعصومين فإن المشاكل التي تواجههم والآلام التي تحلّ بهم، هي التي تبرز كفاءتهم، وتظهر مقامهم المتميز، إضافة إلى ما ينالون بتحملها من الأجر والثواب عند الله سبحانه.

المشكلة ليست قَدَراً:

على ضوء هذا الفهم لطبيعة مشاكل الحياة، فإن على الإنسان أن

---

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٢٨٠٧٩.
(٢) الآمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم.

لا يستسلم ولا ينهزم أمام أية مشكلة أو عقبة، بل عليه أن يعود لذاته، وأن يفتش عن الخلل والخطأ الذي حصل منه، وأنتج المشكل، هل هو نقص في المعرفة والوعي؟ أم هو تقصير في الحركة والسعي؟ أم هو انحراف في الممارسة والسلوك؟ وعبر إصلاح ذاته، وتغيير نفسه إلى الأفضل، سيتمكن من تجاوز المشكل والتغلب عليه. كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١] وكم من فرد كان يعيش وضعاً متردياً، ثم تجاوزه إلى حالة متقدمة، بعد أن غيّر ذاته، وأصلح الخلل في شخصيته؟ وكم من شعب كان يعاني التخلف والاضطهاد، ثم نال حريته وحقق تقدمه، حينما أنجز مهمة الثورة والكفاح، وقاوم عوامل الضعف والخنوع؟

وإذا كان المشكل قد أنتجته ظروف وأوضاع خارجية، فإن الإنسان إذا ما استثار فكره، واستنهض إرادته، واستجمع قواه، فسيجد له من أمره فرجاً ومخرجاً. ذلك أن المشكل ليس قدراً مفروضاً، ولا حتمية أبدية، بل هو كأي وضع أو حدث قابل للتغيير والزوال، ضمن إطار سنن الكون والحياة.

إذاً فلا داعي للانهيار أمام المشكل، ولا الاستسلام والانهزام أمام التحديات، بل يجب شحذ الهمة، وحشد الجهد والطاقة، بالتوكل على الله تعالى والثقة برحمته.

---

(١) سورة الرعد: الآية١١.

وبهذه الحقيقة نطقت آيات الذكر الحكيم لتشيع في نفوس البشر الأمل والتفاؤل، وتعزز في قلوبهم الثقة والإرادة، وتدفعهم للبحث عن وسائل التغيير والتطوير. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[١] ويقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[٢] وما أروع هذه الآية الكريمة التي تعبّر عن مفهوم عظيم، وتنبئ عن حقيقة هامة: إن كل عسر يبشّر بيسر، وإن كل مشكل يكون باباً وطريقاً إلى مكاسب وإنجازات، إذا ما استجاب الإنسان للتحدي، وتعاطى مع المشكل بإيجابية ووعي.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[٣] والتقوى هنا بمفهومها الواسع الشامل التي تعني مراعاة القوانين والسنن الطبيعية والشرعية، والمتقي بهذا المعنى لا يجد نفسه أمام طريق مسدود، بل يبتكر الحلول، ويجدد المحاولات، للخروج من أي مشكل أو مأزق. كما أن مفاهيم الإسلام التي تحرّم اليأس والقنوط إنما تريد أن تخلق في نفس الإنسان روح الأمل، وقوة الإرادة، حتى لا يستسلم ولا ينهزم أمام المشكلات.

فالقنوط تكريس للخطأ والسوء، ومن يتصف به يضل عن طريق التقدم والصلاح ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[٤] وإذا ما

(١) سورة الشرح: الآيتان٥-٦.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٧.
(٣) سورة الطلاق: الآية ٢.
(٤) سورة الحجر: الآية ٥٦.

سيطر الاستسلام واليأس على نفس الإنسان، فإنه يفوّت عليه فرص التغيير والخلاص، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «في القنوط التفريط»[1].

التأوّه والتألم:

ألف كثير من الناس كأفراد ومجتمعات أن يجروا الآهات، ويتباروا في إظهار التألم من وقع المشكل وتأثيراته، فأدباؤهم ينظمون أشعار الحزن والأسى، وكتابهم يتفننون في توصيف النكبات والآلام، ومجالسهم تبدأ ولا تنتهي في التباكي على المصائب، وإبراز التبرم من مشاكل الواقع، ويبقون يراوحون مكانهم، ويستمرون في دوامة التأوه والتألم.

ولكن هل البكاء مجدٍ في تغيير الواقع السيئ؟ وهل تكرار الحسرات وجرّ الآهات يعالج المشاكل ويحلها؟ أم أنه مجرد تنفيس لإراحة النفس بشكل زائف، ولتصريف الحماس والانفعال بطريقة خطأ؟

إن البكاء سلاح العاجز، والتظلم وسيلة الضعيف، وهي طريقة متخلفة في التعامل مع تحديات الحياة. والموقف الصحيح يجب أن يبدأ من التفكير في طرق الحل، واستعراض وسائل المعالجة، ومن ثم اتخاذ قرار المبادرة للتصدي لمواجهة المشكل.

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢١١.

فمثلاً يتحدث بعض المتدينين في جلساتهم ومجالسهم عن انتشار المفاسد والانحرافات، وخاصة في أوساط الشباب والفتيات، ويزايدون على بعضهم البعض في ذكر القصص والأحداث السيئة في هذا المجال، وينعون حالة التدين، وانهيار الأخلاق في المجتمع، ويختمون جلستهم بالتأوه والتألم كما بدأوها، دون أن يتجاوزوا توصيف المشكلة إلى تلمّس طرق الحلول والمعالجات، ودون أن يطالبوا أنفسهم بمبادرة ما، لصالح نشر القيم الدينية، وبث الوعي السليم، أو استيعاب أبناء المجتمع في برامج ومشاريع نافعة مفيدة.

وفي مجال آخر تجد من يتحدث عن مشاكل التعليم، وخاصة مع انتهاء السنة الدراسية، ووجود عدد كبير من المتخرجين في المرحلة الثانوية، والباحثين عن فرص الالتحاق بالجامعات وخاصة في بعض التخصصات الهامة كالطب، فهناك كلام في الجرائد والمجالس عن هذه المشكلة والمعاناة سنوياً، لكن ما هو دور الأهالي ورجالات المجتمع في المساعدة على حل هذه المشكلة؟

وكيف يمكن خدمة أبنائنا وبناتنا وخاصة المتفوقين والمتفوقات من ذوي المعدلات العالية في تحقيق طموحهم الدراسي؟ لماذا لا يستفاد من التوجه للتعليم الأهلي الجامعي؟ ولماذا لا نساعد أبناءنا وبناتنا على الابتعاث ونهيئ لهم الأجواء الصالحة المساعدة؟

إن أي مجتمع لا يخلو من المشاكل والنواقص حتى في أكثر

البلـدان تطـوراً وتقدماً، لكن المجتمع الواعي هـو الذي يفكر في حل مشـاكله، ويسـعى إلى معالجة قضايـاه، ولا يكتفي بتكرار الحسـرات والآهات.

قصة معبّرة:

ينقـل أن أحـد الأثريـاء الواعين كان يأخـذ على أهل قريتـه انعدام المبادرة لديهم في حلّ مشكلات حياتهم، وأراد أن يقدم لهم أنموذجاً عمليـاً، فقـام مبكراً ذات يوم وحمـل حجراً كبيراً ووضعـه في الطريق الرئيسي الذي يسـلكه أهل القرية إلى مزارعهم، ووضع تحت الحجر مبلغاً كبيراً من المال، ثم اختبأ خلف شجرة يراقب..

فمر فلاح يجرّ وراءه بقرة سـمينة، فوجـد الحجر في الطريق فأخذ يسخط ويلوم، وبالكاد مر ببقرته، تاركاً الحجر مكانه..

ثـم جاء رجل آخر يحمل حزمة من الحطب على كتفه، ويسـير في الطريـق، فاصطـدم بالحجـر دون أن يراه، وتعثر ووقـع الحطب، وقام الرجل سـاخطاً يسـبّ ويتألم، ثم جمع حطبه وحمله وسـار في طريقه متبرماً والحجـر لا يزال مكانه. وهكذا مرّ العديد من الرجال، ولم يزد أحـد منهـم على إبداء السـخط والاسـتياء مـن وجود هـذا الحجر في وسـط الطريق، وسـب وشـتم من وضعـه، وربما تحـادث بعضهم مع بعض لتبادل الآهات والتعبير عن السخط والانزعاج.

وفي آخر النهار مر شـاب تبدو على وجهه علامات التعب الشديد

مـن كثرة العمل في الحقل طوال النهار، لكنـه لما رأى الحجر منتصباً وسط الطريق، شمّر عن ساعديه، وحاول بكل جهده وقوته أن يزيحه، وبعد جهد وعناء تمكن من ذلك وأبعد الحجر، فوجد تحته مبلغاً كبيراً من المال، فظن أنه سـقط من أحد من أهالي القرية، فرفع صوته منادياً علـى السـائرين في الطريـق إن كان أحـد منهم قد فقد شـيئاً من ماله.. وهنا ظهر ذلك الرجل الواعي الذي وضع الحجر وأخفى المال تحته، ليعانـق الشـاب ويهديه المبلغ ويشـكره على مبادرتـه الطيبة وروحيته الإيجابيـة، ثم قدمه لأهالي القرية كأنموذج لمـا ينبغي أن يكونوا عليه مـن التصدي لحل المشـكل وإزالة العقبـات، وعدم الاكتفـاء بإظهار التبرم والسخط والتألم.

المبادرة للعمل:

قبل سـتين سـنة تقريباً نشـرت بعض المجلات في مصـر ومناطق أخـرى مقـالات تتهجم على أتبـاع مذهب أهـل البيـت عليهم السلام، وتعدُّهم خارجين عن دائرة الإسـلام، وتصفهم بالجهـل والخضوع للخرافات والأسـاطير، وأنهم لا يمتلكون تراثاً ولا شخصيات تستحق الاحترام، وعلى أثر هذه المقالات سادت حالة من الاستياء والسخط في أوساط الحوزة العلمية في النجف الأشـرف ـ العـراق، وهي المركز العلمي والمذهبي للشـيعة، وعطلت الدروس احتجاجاً على هذه الإسـاءات، وتحدث الخطباء فـي المجالس منددين بذلك، لكن ثلاثة من العلماء

ما كانوا يرون في مظاهر التنديد وإعلان السخط والاستياء أمراً كافياً في مواجهة هذا العدوان.

بل قرر كل واحد منهم أن ينجز مشروعاً علمياً معرفياً يخدم به المذهب، ويقدم الطائفة للآخرين من خلال تاريخها وثقافتها ورجالاتها.

أحدهم كان السيد محسن الأمين العاملي كتب موسوعة: (أعيان الشيعة)، والثاني هو السيد حسن الصدر كتب بحثاً مهمًّا طبع في مجلد كبير تحت عنوان: (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام)، والثالث هو الشيخ آغا بزرك الطهراني ألف موسوعة ضخمة بعنوان: (الذريعة إلى تصانيف الشيعة).

هذه الموسوعات الثلاث أصبحت مراجع ومصادر أساسية ونالت مكانة مرموقة عند الباحثين وكانت أفضل رد وجواب على المتجاهلين والمغرضين. وهكذا يجب أن يكون التعاطي مع المشاكل بالمبادرة إلى العمل وتحقيق الإنجازات، وليس الاكتفاء بالتذمر والتشكي واجترار الغبن.

طريق المعالجة:

التعامل الإيجابي الصحيح مع أي مشكل ينبغي أن يكون عبر الخطوات التالية:

١. الدراسة الموضوعية:

لمعرفة حقيقة المشكل وحجمه، وأسبابه وخلفياته، ومدى الآثار والانعكاسات التي ينتجها، وذلك بعيداً عن التهويل والتضخيم، والاستهانة والتبسيط، بل دراسة الأمور بواقعية وموضوعية. فقد تختلط الأشياء على الإنسان، ويتوهم ما لا واقع له، وقد يعتمد الإنسان في تصوراته على الظنون والتخيلات.

٢. التفكير في الحلول:

انطلاقاً من أن لكلّ مشكلة حلاً، ومن الإيمان بطاقات الإنسان الخلاقة، وقدراته العقلية الثاقبة، فإنه إذا ما وجه عقله نحو نقطة معينة، واستعرض مختلف الخيارات والاحتمالات، واجتهد في إبداع الحلول، وابتكار الأساليب والوسائل، فإنه يهتدي إلى طريق الحل والعلاج، ولو قرأنا تجارب المخترعين والمكتشفين والعظماء والمصلحين، لرأينا كيف تمكنوا من تجاوز العوائق والعقبات، وتوصلوا إلى تحقيق الطموحات والإنجازات، بعد جهد فكري عميق، وعمل ذهني شاق. يقول الإمام علي عليه السلام: «من أسهر عين فكرته بلغ كنه همته»[١] ويقول عليه السلام: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور»[٢].

إن ما يعاني منه الكثيرون تجاه المشاكل والصعوبات، هو وقوعهم

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر السابق.

تحت تأثير العواطف والانفعالات النفسية، على حساب إعمال العقل، وتركيز الفكر.

٣. تحمّل المسؤولية:

فالبعض ينتظرون أن تحلّ مشاكلهم عن طريق الغيب، ويتوقعون المعجزة من المجهول، ويترقبون التغيير والإصلاح عن طريق الدعاء، أو حدوث تطورات ما في هذه الحياة، وفي بعض الأحيان يعلقون الآمال على هذه الجهة أو تلك لتحقيق ما يرغبون.

وهذه كلها تصورات مخالفة لمنطق الحياة، وللقوانين والسنن، فإن الله تعالى لا يريد تربية عباده على العجز والكسل، ولذلك يحملهم المسؤولية عن أوضاعهم، ويحثهم عبر رسالاته وأنبيائه على العمل والجد والاجتهاد، فواقع الإنسان نتاج عمله وكسبه ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[١]، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٢].

فلا بد من تحمّل المسؤولية تجاه أي مشكل، والاستعداد للبذل والتضحية من أجل تجاوزه، وأن لا يعيش الإنسان على الآمال والتوقعات، فمشاكلنا تعنينا، ونحن المطالبون بالتصدي لمعالجتها، وعلينا أن نبذل الجهد، ونعطي من أنفسنا لتحقيق ذلك.

---

(١) سورة النجم: الآية٣٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية١٣٢.

٤. التشاور والتعاون:

فتبادل الرأي واستعراض وجهات النظر بين المهتمين بالشأن الاجتماعي، يساعدهم على الوصول إلى أفضل الآراء وأصوبها، كما أن تظافر الجهود، واجتماع القوى والارادات يمكن من تذليل الصعاب، وإنجاز المهام الكبيرة.

وبدل أن يتبارى الناس في إعلان الآهات والحسرات، عليهم أن يتنافسوا في طرح المعالجات، ويتعاونوا في تقديم المشاريع العملية لتجاوز ما يواجهونه من المشكلات.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: «ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم»[١]، ويقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٢].

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٠٥.
(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

مصاعب الحياة بين الانفعال والاستيعاب

مـن طبيعة هذه الحيـاة الدنيا أنهـا زاخرة بالمشـاكل والمصاعب، بمقـدار مـا هـي مليئـة بالملـذات والشـهوات، وفـرص المكاسـب والإنجـازات، وأرادها اللـه تعالى كذلك لتكون قاعـة ابتلاء وامتحان للإنسان، وفي الاختبار لابد من توقع الأسئلة الصعبة، ولإعطاء رخصة قيادة السيارة يمتحن بالسير في طرق ذات منعطفات ومتعرجات.

ولمشـاكل الحياة وظيفة أخرى هي صقل إرادة الإنسان، واستثارة قدراته وطاقاته، فالتحديات دافع التقدم والتكامل.

لذلـك يؤكد القرآن الكريم علـى حتمية العنـاء والصعوبة في هذه الحيـاة يقـول تعالى: ﴿لَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَـانَ فِـي كَبَـدٍ﴾[1]. والكبد هي المعاناة والتعب الشـديد. وفي آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ

---

(١) سورة البلد: الآية ٤.

إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[(١)]. والكدح هو العمل والسعي بمشقة.

الناس الذين يفكرون بأنهم يجب أن يرتاحوا في حياتهم، ولا تزعجهم المشاكل والمصاعب، هؤلاء واهمون لا يعرفون طبيعة الحياة.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «الراحة لم تخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنما خلقت الراحة في الجنة ولأهل الجنة، والتعب والنصب خلقا في الدنيا ولأهل الدنيا»[(٢)]. وفي حديث للإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال لأصحابه: «لا تتمنوا المستحيل! قالوا: ومن يتمنى المستحيل؟! فقال: ألستم تمنون الراحة في الدنيا؟ قالوا: بلى. فقال: الراحة للمؤمن في الدنيا مستحيلة»[(٣)].

والإنسان في أي موقع كان، وضمن أي حالة في هذه الحياة، معرض للمشاكل والابتلاء، فقد يتصور الفقير أن الأغنياء يعيشون راحة تامة، أو يتصور المحكومون أن الحاكمين لا يواجهون ما يزعجهم ويقلقهم، أو أن أهل تلك البلاد لا شيء ينغّص عليهم صفو راحتهم، لكن هذه التصورات جميعها بعيدة عن الواقع، فلا أحد في هذه الحياة حاكماً أو محكوماً، غنياً أو فقيراً، عالماً أو جاهلاً، من مواطني العالم الثالث أو الأول، لا أحد يعيش راحة تامة، نعم قد تتفاوت المشاكل،

(١) سورة الانشقاق: الآية ٦.
(٢) المجلسي: محمد باقر، ج٧٠، ص٩٢.
(٣) الريشهري: محمدي ج٤، ص٢٠٤.

ويختلف مستوى المعاناة، ومدى توفر إمكانات المواجهة والعلاج.

فقد تأتي المشكلة من خلال البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان، وقد تنبع من داخل جسمه أو حالته النفسية، وقد تنبثق من الظروف الاجتماعية التي ينتمي إليها.

إن الراحة الكاملة، والسعادة التامة، لا تتوفر إلا في الجنة حسبما يخبرنا الله تعالى عنها، هناك حيث لا أمراض، ولا نزاعات ولا منغصات ولا نواقص ولا شيء يسبب ذرة من العناء أو الانزعاج، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[١].

وإذا كان خيار تغيير طبيعة الحياة ليس متاحاً للإنسان، فهي كما يقول الشاعر العربي:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

إلا أن طريقة تعامل الإنسان مع هذه الطبيعة يفتح أمامه أكثر من خيار، ويمكننا أن نلاحظ في تعاطي الناس مع مشاكل الحياة، أن هناك نمطين مختلفين: الأول حالة التشنج والانفعال. والآخر منهجية الاستيعاب.

(١) سورة الحجر: الآيات ٤٥- ٤٨.

التشنج والانفعال:

التشـنج لغة من الشَـنَج وهـو تقبّـض الجلد والأصابـع وغيرهما، وفـي الحديث: «إذا شـخص البصر وشَـنِجَتِ الأصابـع، أي انقبضت وتقلصت»(١) بحيث يصعب بسطها وتحريكها.

واللغويـون يعبـرون بذلك عن حالة مرضية، يطلـق عليها الأطباء: تشـنجاً عضلياً ويعرفونها بأنهـا حالة مفاجئة لا إراديـة تصيب العضل فتمنعه من أداء وظيفته مع ألم شديد.

أما التشـنج كحالة نفسـية فيعرّفه علماء النفس: بأنه حالة يفقد فيها الإنسـان الإدراك الواعـي ويصاحبهـا تقلصات فـي العضلات، وهي وسـيلة هروبية حينما تعجز الذات عن مواجهة ضغط من الضغوط أو موقف من المواقف بطريقة واعية سليمة.

ومن التعريفات السابقة يمكننا التعبير عن التشنج كظاهرة أخلاقية، بأنه الانفعال الزائد عن الحد تجاه حدث سيئ أو شخص مسيء. يدفع إلى مواقف أو تصرفات سريعة دون تفكير موضوعي.

هـذا الانفعـال المتطـرف يحـدث حالـة مـن الانقباض فـي إرادة الإنسـان وتفكيره، فتعوقه عن الحركة والسـعي لتجاوز المشكل، كما تسـبب له الكثير من التأزم والتألم في مشـاعره وأحاسيسـه، تماماً كما هي آثار التشنج العضلي على مستوى الجسم.

---

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب.

مظاهر وأعراض:

لحالة التشنج مظاهر وأعراض في شخصية الإنسان يمكن أن نرصد منها ما يلي:

١. السلبية والتشاؤم:

فالحياة فيها أحداث جيدة وأخرى سيئة، فيها الحلو والمر، ويحصل فيها ما يبعث على الأمل والتفاؤل، كما يحدث ما يوجب التشاؤم، فلا بد من الاعتدال والتوازن، والنظر إلى الأمور بموضوعية. لكن الشخصية المتشنجة وبسبب ما قد يمر بها من مشاكل ونكسات تميل إلى السلبية والتشاؤم غالباً، وتقرأ الأحداث بهذه النفسية، فتتكرس لديها حالة اليأس والقنوط، وتسيطر عليها حالة الإحباط، وذلك يعوق الانطلاق والحركة والسعي.

إن التعاليم الدينية تربي في الإنسان روح الأمل والتفاؤل، وتنهاه عن النزوع نحو اليأس والتشاؤم مهما عصفت به المشاكل والأزمات، يقول تعالى: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]. ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[٢].

وفي واقعة الخندق يقدم الرسول ﷺ مثلاً رائعاً في التطلع إلى

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٢) سورة الشرح: الآيتان ٥-٦.

الخير، وتجاوز ضغط الأزمات والمشاكل، حيث تذكر كتب السير والتاريخ: أنه لما حاصر المشركون وحلفاؤهم من اليهود المدينة المنورة، وكانوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مدججين بالسلاح والعتاد، ولم يكن للمسلمين قوة مكافئة، لذلك قرروا حماية المدينة بحفر خندق حولها، حتى لا يستطيع الأعداء الهجوم عليها، فهم في موقع الدفاع، وأثناء حفر الخندق، اعترضتهم صخرة قوية شق عليهم كسرها، فبادر الرسول وأخذ المعول وضرب على الصخرة ولشدة ضربته لمعت برقة منها، وتكرر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يكبّر فيكبر معه المسلمون، ثم قال لهم: «في الأولى فتح الله عليّ بها اليمن، وفي الثانية فتح الله عليّ بها الشام والمغرب، وفي الثالثة فتح الله عليّ بها المشرق».. فقال المنافقون: ألا تعجبون يحدثكم ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا[1].

وفي بعض الأحيان تكون المبالغة في السلبية والتشاؤم نوعاً من التبرير لموقف التقاعس والكسل وعدم تحمل المسؤولية، بحجة عدم الفائدة والجدوى، وغلبة السوء والشر.

٢. الحماس للهدم دون البناء:

من أعراض ظاهرة التشنج والانفعال أن يبقى أصحابها في دائرة

(١) الحسني: علي فضل الله، سيرة الرسول وخلفائه، ج٣، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: مؤسسة الوفاء)، ص٣١٤.

السخط والاعتراض تجاه المشكل، دون أن يتجاوزوا ذلك إلى صنع الحلول، وتقديم العلاج. إنهم يفتشون عن المشاكل ليجتروا الكلام حولها، ولا يكلفون أنفسهم عناء التفكير في معالجتها، والسعي لمواجهتها. وقد ترى في بعض المجالس أشخاصاً يتبارون في استعراض المشاكل، ويزايدون على بعضهم في الحماس لها والغضب منها، لكنك إذا ما طرحت عليهم السؤال عن طريقة الحل وأسلوب العلاج، يواجهونك بالفتور والبرود، والتهرب من تحمل أي مسؤولية!!

لماذا نتكلم عن المشاكل والقضايا فقط، ولا نعتصر أذهاننا من أجل ابتكار الحلول، وابتداع طرق الخلاص؟

فإذا ما وقع حادث اعتداء على أحد من المجتمع، أو حصلت جريمة اخلاقية، أو أساء أحد إلى الدين أو المذهب، يصبح ذلك هو حديث المجالس، وتسود المجتمع أجواء الحماس والانفعال، وينشغل الناس بذلك لفترة، ثم تهدأ النفوس، وينتهي الحماس، في انتظار مشكلة أخرى.. وهكذا !!

لماذا لا نتحمس للفعل الإيجابي بدل الحماس كرد فعل فقط لمشكلة هنا وهناك؟

ولماذا لا تتحول ردود أفعالنا تجاه المشاكل إلى خطط عمل وبناء بدل الاكتفاء باجترار المآسي والحسرات؟

يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري: «إن بإمكانك أن تستثير الألوف من الناس لكي يخرجوا بمظاهرة يقطعون فيها عدة كيلومترات تحت حرارة الشمس، لكن هل تستطيع أن تقنع أحداً منهم بتنظيف عدة أمتار أمام باب بيته!!».

٣. البحث عن الأخطاء:

الشخصية الانفعالية المتشنجة غالباً ما تبحث عن النواقص، وتفتش عن الأخطاء ونقاط الضعف، في أي عمل أو مشروع، ولدى أي شخص أو جهة، ليس من أجل إسداء النصيحة، ولا لمساعدة في الترميم والإصلاح، وإنما لإثارة التشكيك، وللتشهير بالآخرين وإنجازاتهم.

إن الإيجابيات ونقاط القوة في أي نشاط، ومن قبل أي شخص لا تسترعي انتباههم، ولا تستقطب أنظارهم، لكن أقل خطأ وأبسط نقص، يجلب اهتمامهم، ويتضخم لديهم، وتقوم قيامتهم ولا تقعد اعتراضاً عليه!!

إن المنصف المخلص لبني نوعه أو مجتمعه هو من يشيد بالإيجابيات، ويقدم النقد البنّاء، والنصيحة الطيبة تجاه النواقص والسلبيات..

فمثلاً عندنا مؤسسات خيرية تعمل في المجتمع كالجمعيات الخيرية، ولجنة كافل اليتيم، ومهرجانات الزواج الجماعية، وصناديق الزواج الخيرية، والأندية الرياضية، والأنشطة الدينية والثقافية،

وكلها بجهود تطوعية اختيارية، يقدمها أفراد من أبناء المجتمع خدمة للمصلحة العامة، وابتغاءً لثواب الله ورضوانه، وهم بشر غير معصومين، قد يصدر منهم الخطأ والنقص، وقد تكون لديهم وجهة نظر في تصرف ما.

وما قد يقوم به البعض من موقف تجاه هذه المؤسسات الخيرية التطوعية، وما شاكلها من أنشطة في المجتمع، بحجة حدوث هذا الخطأ، أو وجود ذلك النقص، إنما هو مظهر وعرض لتلك النفسية الانفعالية المتشنجة.

٤. القسوة في ردّة الفعل:

قد يتعرض الإنسان لمواقف مثيرة من قبل الآخرين، بأن تصدر منهم إساءة تجاهه، أو يرتكبون خطأً أو ذنباً بشكل عام، وهنا كيف يكون رد الفعل على هذا المثير؟ إن حالة التشنج والانفعال تدفع الإنسان إلى ردة فعل قاسية عنيفة، تعود عليه بالمزيد من الانزعاج والتأزم النفسي، وتنسف الجسور بينه وبين الآخرين، وقد تجعل الطرف الآخر يتمادى في خطئه من منطلق التحدي ورد الفعل أيضاً..

بينما يكون للحلم والتسامح الكثير من النتائج الإيجابية الطبيعية، فبذلك يمتص الإنسان حالات التشنج، ويحافظ على هدوئه واستقراره النفسي، ويكسب مودة الآخرين، والتأثير في نفوسهم وسلوكهم.

إننا بحاجة إلى أن يحتمل بعضنا بعضا، وأن لا نكون قاسين عنيفين

علـى بعضنـا، وإذا ما أخطـأ واحد منـا، فعلينا أن نسـاعده على تجاوز خطئه بالنصيحة واللطف، لا أن ندفعه للارتكاس والتمادي أكثر..

وقـد ورد فـي الحديث المروي عن رسـول اللـه ﷺ إن من حقوق المسـلم على أخيه المسـلم: «ويقيل عثرته» فإذا سـقط في دين أو دنيا أقاله، كأنه لم يحدث له سقوط[١].

وجـاء فـي روايـة أن رجلاً في عهد رسـول الله ﷺ شـرب الخمر، فجـاءوا به إلى الرسـول فأقام عليـه الحد، ولما خرج وقع الجالسـون فيـه، قال أحدهم: اللهـم العنه، وقال آخر: اللهم أخـزه، فالتفت إليهم رسول الله ﷺ قائلاً: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم» قالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال ﷺ: «قولوا: اللهم اهده، اللهم أصلحه، اللهم اغفر له».

لماذا يتلقف الواحد منا عثرة أخيه وكأنه أدرك مكسباً أو حقق أمنية؟ ولماذا يستغل البعض أتفه الأسباب ليدخل معركة مع الآخرين؟

لقد كان أئمة الهدى عليهم السلام يتسامون على الإساءات، ويتجاوزون عن الأخطـاء، ليعلموننـا الرزانة أمـام المثيرات، كما نقل في سـيرة الإمام زيـن العابديـن عليه السلام أنه مر برجل فبادر الإمام بالسـب والشـتم، فمشـى الإمـام معرضاً عنه كأنه غير مقصود بكلامه، فاقترب إليه الرجل قائلاً: (إياك أعني) وأجابه الإمام فوراً: «وعنك أغضي» وانصرف عنه. ومرة

(١) الشيرازي: السيد محمد، إيصال الطالب إلى المكاسب، ج٣، ص١٣١.

أخرى افترى عليه رجل وبالغ في سبه، فالتفت إليه الإمام بهدوء وبرودة أعصاب قائلاً: «إن كنا كما قلت: فنستغفر الله، وإن لم نكن كما قلت: فغفر الله لك»[1].

أسباب وخلفيات:

هناك أسباب وخلفيات وراء هذا السلوك الانفعالي المتشنج، لعل من أبرزها ضعف الوعي والمعرفة بطبيعة الحياة والبشر، أو الغفلة عن ذلك وسيطرة التفكير المثالي، حيث بعض الناس يرسمون في أذهانهم صوراً مثالية للأمور والأشخاص، ويرون الواقع لا يتطابق مع تلك التصورات المثالية، فتصدمهم تلك المفارقة بين المثال الواقع.

ويكرّر بعض الناس دائماً عبارة: المفروض كذا والمفروض كذا حينما يقوّمون الآخرين وأعمالهم، لكنهم ينسون أنفسهم ومطالبتها بالمفروضات عليها، قبل مطالبة الآخرين.

كما أن حالة القهر والاستضعاف قد تنمي في نفس الإنسان الانفعالية والتشنج تجاه أنداده أو من هم دونه، كرد فعل لما يختزن من غضب وسخط تجاه المسيطرين عليه، حيث لا يستطيع مجابهتهم.

وللتربية العائلية والبيئة الاجتماعية دور مؤثر في تكوين وتكريس هذه الحالة، فتعامل العائلة مع الطفل، وسلوكها أمامه، يصوغ شخصيته

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام زين العابدين، ص٧٧.

بنفس الاتجاه، وكذلك البيئة المحيطة بالإنسان تنعكس أخلاقياتها على نفسه وسلوكه.

منهجية الاستيعاب:

كما أن التشنج والانفعال أمام المشاكل والأزمات خطأ مرفوض، فإن الاستسلام والخضوع للمشكلة ليس هو المطلوب، وإنما الصحيح استيعاب المشكلة عبر فهمها أولاً بخلفياتها وحجمها وحدودها، دون تضخيم أو تهويل، وفي المرحلة الثانية: التفكير في مواجهة المشكلة بموضوعية وتأن، ودون تسرع وارتجال، وثالثاً وأخيراً: حشد الطاقة والقدرة لتجاوز المشكلة.

هذه المنهجية هي التي تمكن الإنسان من تخطي مشاكل الحياة وعقباتها، وتحوّل المشاكل والتحديات وسائل ودوافع لتفجير مواهبه وتنمية طاقاته.

وقد نجد في مصطلح (شرح الصدر) الوارد في النصوص الدينية ما يعبّر عن هذه المنهجية، في مقابل ضيق الصدر الذي يعبر عن حالة التشنج والانفعال.

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

وأول نعمة يمتن الله تعالى بها على نبيه محمد ﷺ نعمة سعة الصدر التي استوعب بها مشاكل الدعوة، ومواجهة المشركين، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1].

وحينما أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون، ليردعه عن طغيانه، وليدعوه إلى طاعة ربه، فإن موسى طلب من الله أن يمنحه شرح الصدر ليستوعب مضاعفات وأعباء هذه المهمة الضخمة: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[2].

وكلما كان طموح الإنسان أكبر، ودوره أرفع، احتاج إلى مستوى أعلى من سعة الصدر، لاستيعاب المشاكل والصعوبات، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «آلة الرياسة سعة الصدر».

(١) سورة الشرح: الآية١.
(٢) سورة طه: الآيتان ٢٤-٢٥.

العوائق بين الإحباط والفاعلية

ما هي خيارات الإنسـان تجاه العوائق التي تنتصب أمام احتياجاته ورغباته في هذه الحياة؟

وكيف يتعامل مع الأزمات والمشاكل حينما تواجهه في أي ميدان من الميادين؟

هنالك ثلاثة خيارات تتراوح بينها مواقف الناس:

١. الاستسلام:

فالكثيـرون يتراجعـون أمـام العوائـق، ويتخلـون عـن تطلعاتهـم وأهدافهـم، ويستسـلمون لـكل تداعيـات المشـكلة ومضاعفاتهـا، ويعترفـون بالعجز والفشـل، وأن ذلـك قدرهم الذي لا خيـار لهم إلاّ قبوله.

وحينما تسـيطر نفسية الاستسـلام على الإنسان، فإنها تفرض عليه

الانهزام والانسحاب أمام أبسط التحديات، وأقل الصعوبات، ودون أن يبذل جهداً كافياً لتجاوز ما يواجهه من عوائق.

٢. الانفعال النفسي:

والبعض من الناس حينما تصطدم رغباتهم بعوائق وموانع، ويواجهون وضعاً غير مريح لهم، فإنهم يعيشون حالة من التوتر النفسي الدائم، ويصابون بالكآبة والإحساس بالقهر، وقد يؤدي بهم ذلك إلى حالة الشعور بالإحباط والقنوط.

وهذا الخيار أسوأ وأخطر من الخيار السابق، الذي يتراجع فيه الإنسان عن رغبته، ويعلن الاستسلام والقبول بالهزيمة.

إنه هنا لا يتخلى عن رغبته، بل يزداد انشداداً إليها، ويعاني الشعور بالحرمان منها، ويستحضر في نفسه وذهنه دور العوائق في عدم تحقيق تلك الرغبة بشكل دائم، مما يجعله عرضة للاضطراب النفسي، والمعاناة الشديدة.

الإحباط:

ويطلق علماء النفس على هذه الحالة مسمى (الإحباط) (furstration) وهو تعبير عن الحالة التي يمر بها الفرد حين لا يتوافر له إشباع دافع يلح عليه ويشعره بالحاجة، ويعرفونه بأنه: عملية تتضمن إدراك الفرد لعائق يعوق إشباع حاجة له، أو توقع حدوث هذا العائق

في المستقبل[١].

وتتفاوت درجات الشعور بالإحباط حسب تفاوت إلحاح الدافع، وقوة العائق، فكلما كان دافع الإنسان شديداً نحو غرض معين، وكان العائق قوياً، تصبح حالة الإحباط عنيفة بنفس الدرجة والمستوى.

وينتج الإحباط خاصة في درجاته المتقدمة، آثاراً تدميرية خطيرة على حياة الإنسان والمجتمع.

فهو يمعن في تمزيق نفس الإنسان، ويجعله يعيش حالة دائمة من السخط والتوتر، ويفقده بالتالي الإحساس بالسعادة، والتمتع بمباهج الحياة، فيتناسى ويتجاهل كل ما لديه وحوله من المكاسب، ومنابع اللذة والارتياح، ويتركز نظره وتفكيره حول ما تعذّر عليه نيله والوصول إليه.

فتصبح الدنيا في عينه سوداء قاتمة، ويصبح هو كئيباً متشائماً، وقد خاطب هذه الشريحة من الناس الشاعر العربي إيليا أبو ماضي ليدعوهم إلى تجاوز حالتهم المرضية، وأن يكونوا أكثر واقعية وتكيفاً مع أوضاع الحياة، وأكثر أملاً وتفاؤلاً بالالتفات إلى الجوانب المشرقة السّارة فيها حيث يقول:

لم تشتكي وتقول إنك معدم والأرض ملكك والسما والأنجم
ولك الحقول زهورها وعبيرها ونسيمها والبلبل المترنم

(١) الرفاعي: نعيم، الصحة النفسية، الطبعة السابعة ١٩٨٧م، جامعة دمشق، ص١٦٩.

هشت لك الدنيا فمالك واجم وتبسمت فعلام لا تتبسم
ما بين أشجار كأن غصونها أيد تصفق تارة وتسلم

والإحباط يشلُّ إرادة الإنسان، ويمنعه من التفكير في السعي والحركة، حيث يفقد الثقة في ذاته، وفي جدوى أي محاولة أو نشاط.

الإحباط دافع للعدوان:

وفي أسوأ مرحلة قد يصبح الإحباط دافعاً نحو العدوان، حيث يظهر المصاب بالإحباط شديد التوتر، ميّالاً إلى اقتناص أية فرصة للخلاص من ضغط التوتر لديه.

إنّنا نلاحظ مثل هذه الحالة عند بعض الأطفال، حينما يفتقدون الرعاية التي اعتادوها، أو يحال بينهم وبين بعض رغباتهم، فإنهم قد يقومون بنشاط تخريبي، فيضربون ويكسرون ما حولهم من الأواني والأثاث.

وقد يأخذ العدوان الناشئ من الإحباط شكلاً كلامياً أحياناً كالشتائم والكلام القاسي، وقد يأخذ شكلاً عاطفياً كاختزان الكراهية والحقد على الآخرين، وقد يتفجر عنفاً باتجاه الذات أو الغير.

إنّ حالات الانتحار هي في الغالب إفراز لمستوى متقدم من الإحباط، يهيمن على نفس الفرد، ويدفعه لإنهاء حياته، للخلاص من ضغط التوتر الإحباطي الذي يعانيه.

لذلك يرى علماء النفس أنّ مرض الاكتئاب قد يكون السبب

الرئيس وراء محاولات الانتحار، وتقدر الباحثة الأميركية الدكتورة (جانيس وتينزل) في كتابها (الاكتئاب الإكلينيكي) إلى أنّ هناك ٢٠٠ ألف شخص كل عام يحاولون الانتحار والتخلص من حياتهم، إلاّ أنّ الذين ينجحون في الانتحار وقتل أنفسهم هم ٢٥ ألف شخص من بين المئتي ألف سنوياً[١].

ويشير تحقيق نشرته جريدة الوطن السعودية إلى أنّ نصف مليون شخص يحاولون قتل أنفسهم سنوياً، وأنّ الإقدام على الانتحار ليس رغبة في الموت، بل للهروب من الألم، وفي أميركا زاد عدد الذين ينتحرون على الذين يُقتلون عن طريق الغير. والانتحار عادة ما يكون بسبب زيادة الضغوط النفسية.

وتعرّض التقرير لوجود هذه الظاهرة وتصاعد أرقامها في المملكة، فحسب إحصاء وزارة الداخلية السعودية لعام ١٤٢٠هـ تجاوزت حالات الانتحار ومحاولة الانتحار ٤٠٠ حالة. ومن بين المنتحرين مواطن سعودي حاصل على درجة الدكتوراه، وضابط برتبة نقيب، ونساء غير متزوجات، الأمر الذي يعني أنّ هناك أكثر من حالة انتحار يومياً[٢].

---

(١) الاقتصادية: جريدة يومية، ٣٠ يناير ٢٠٠١م، ص٥.
(٢) الوطن: يومية سعودية، ٧ ديسمبر ٢٠٠٠م، ص١٧.

الإحباط قنوط من رحمة الله:

عالج الإسلام حالة الإحباط تحت مسمى «القنوط» حيث وردت آيات وأحاديث عديدة، تحذر الإنسان من خطر القنوط، وتعدُّه مساوقاً للكفر بالله تعالى، والضلال عن منهجه القويم.

والقنوط لغة: مصدر قولهم: قَنَطَ يَقنُطُ إذا يئس يأساً شديداً. قال ابن الأثير: القنوط هو أشد اليأس من الشيء، وقيل: القنوط: اليأس من الخير. ويبدو أنّ القنوط أبلغ من اليأس، للترقي إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾(١).

وعدّ علماء الإسلام القنوط من رحمة الله من الكبائر. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾(٢).

والآية وردت في سياق قصة نبي الله ابراهيم الخليل، حيث تقدم به وزوجته العمر ولم يرزقا ولداً، فجاءت الملائكة تبشره ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾(٣) لكنه لم يكن متوقعاً لحصول ذلك بسبب كبر سنه﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾(٤)، فحذَّرته الملائكة من أن يقع في حالة القنوط ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ

(١) سورة فصلت: الآية٤٩.
(٢) سورة الحجر: الآية٥٦.
(٣) سورة الحجر: الآية٥٣.
(٤) سورة الحجر: الآية٥٤.

مِـنَ الْقَانِطِينَ﴾[١]، لكنه أشـار إلـى إدراكه ومعرفته بسـوء وخطر هذه الحالـة، وأنها تصيب الضائعيـن التائهين ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

وحتى الذين يتورطون في معاصي الله ويرتكبون الذنوب والآثام، فإن الله تعالى يفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء، ويحثهم على التوبة والإنابة، حتى لا يصابوا بحالة قنوط وإحباط تدفعهم أكثر إلى أحضان الجريمـة والانحراف. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

وفي حديث شـريف مروي عن رسول الله ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنـه قـال: «الفاجـر الراجـي لرحمة اللـه تعالى أقـرب منها مـن العابد المقنط»[٣].

ويشـير الإمام علي عليه السلام إلى ما يسـببه القنـوط لصاحبه من الحرمان وضياع الفرص والمكاسب بقولـه: «وفي القنوط التفريط»[٤].

(١) سورة الحجر: الآية٥٥.
(٢) سورة الزمر: الآية٥٣.
(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢١١.
(٤) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج٣، ص١٤٠، حديث رقم ٥٨٦٩.

٣. الفاعلية:

الخيار الثالث تجاه العوائق والعقبات، هو الفاعلية والسعي، ذلك أن قسماً كبيراً من العوائق ليس مستعصياً على التجاوز والاختراق، لكنه يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد، واستخدام ألوان من الوسائل والأساليب، فالبعض من الناس إذا ما استوقفهم في طريق تحقيق رغباتهم واحتياجاتهم عائق أو حاجز، يهرعون سريعاً إلى التراجع والانسحاب، ويسيرون ضمن أحد الخيارين السابقين.

بينما أثبتت التجارب ووقائع الحياة، أن الاجتهاد في السعي، وتكرار المحاولات، وتجديد الأساليب والوسائل، كفيل بمساعدة الإنسان على تحقيق مآربه، والوصول إلى أهدافه غالباً.

إن الطفل الصغير قد لا يستجيب له والداه في تنفيذ رغبته من أول إشارة أو طلب، ومن وحي فطرته وطبيعته يبقى مصراً على ما يريد مستخدماً سلاح البكاء والصراخ، حتى يتم له تحقيق رغبته.

وكم من طالب تعثر في طريق الدراسة وطلب العلم، لكنه مع المواصلة والإصرار نال رفيع الدرجات.

ويدرك كل مراجع للمؤسسات العامة والخاصة أنه قد تُرفض معاملته وطلبه في بادئ الأمر، لكنه إذا تابع المعاملة، وأكمل نواقصها، أو رفعها إلى الجهات العليا في تلك المؤسسة، فإنه قد يحظى بالنجاح والقبول.

الالتفاف على العائق:

قد يواجه الإنسان عائقاً قاهراً يصعب اقتلاعه وتجاوزه، إما لطبيعة ذلك العائق، كالعاهات والإعاقات الجسدية، وإما لاستلزامه ظرفاً وقدرة لا يمتلكها الإنسان بالفعل.

وهنا يجب أن يتحلى الإنسان بالواقعية، فلا يصبح أسيراً لتلك المشكلة التي لا يمتلك حلها بالفعل، بل يخرج عن سيطرتها على نفسه ومشاعره، ويلتفت إلى سائر نقاط قوته، وإلى الإمكانيات المتوفرة لديه، والفرص الأخرى المتاحة أمامه، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه تقدماً ونمواً يعوّض عليه ما فقده من تطلع ورغبة بسبب تلك العوائق، وقد يجد نفسه في موقع أفضل ومستوى أعلى.

إن من يعيش في مقتبل عمره حالة يُتْم بفقد والديه أو أحدهما، فيعاني حرماناً عاطفياً، ويفتقد الرعاية التي يرى غيره يتمتع بها، هذا الإنسان إذا سيطرت على نفسه معاناة اليتم، وخضع لها، فسيعيش الألم والتمزق النفسي، الذي قد ينعكس عليه اكتئاباً وإحباطاً، وقد يدفعه لتوجهات سلبية خاطئة. وستكون حياته متخلفة، ومستقبله سيئاً.. بينما لو تكيّف مع حالة اليتم كأمر واقع، لا يستطيع تغييره ولا تبديله، واتجه لاكتشاف قدراته، وتنمية طاقاته، فإنه سيصبح في وضع جيد، ومستوى متقدم، يتفوق به على آخرين عاشوا في كنف آبائهم وأمهاتهم، لكنهم لم يمتلكوا مؤهلاته ومستواه.

وكذلك من يبتلي بإعاقة جسـدية كفقد البصر، أو تشوّه الخلقة، أو حالة كسـاح أو شـلل.. فإنه إذا وقع في أسـر معاناته، واستجاب نفسياً لحالة النقص التي عنده، فسـيحكم على نفسـه بالإنزواء والانهيار، أما إذا تجـاوز تلـك الإعاقة نفسـياً، وفتش عمَّا لديه مـن نقاط قوة أخرى، وفعّلها ونمَّاها، فسـيكون مرشحاً لأداء دور مؤثر في الحياة، قد يتفوق من خلاله على الأصحّاء العاديين.

وكـم من معوّق أصبح في مصافّ العظمـاء، وحقق تقدماً وانجازاً فـي تاريخ البشـرية.. ونقرأ فـي تاريخنا العربي عن شـخصية رائدة في الفلسـفة والأدب هـو أبـو العـلاء المعـرّي (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ، ٩٧٣ ـ ١٠٥٧م) الـذي فقـد بصره وهو فـي الرابعة من عمره علـى إثر اصابته بالجدري، لكنه أقبل على العلم والأدب، ونمّى في نفسـه القدرة على الحفظ، فكان يبحث عن الكتب والمكتبات، ويجتهد في حفظ ما يقرأ عليـه منها، حيث توجه من بلدته حلب إلى انطاكية واسـتفاد من مكتبة عامـرة فيها، تشـتمل علـى نفائس الكتـب، فحفظ منها ما شـاء الله أن يحفظ، وذهب إلى اللاذقية فدرس اليهودية والنصرانية، وزار طرابلس قاصـداً مكتبة كبيرة فيهـا، ثم تردد في طور لاحق علـى مكتبات بغداد ودور العلـم بهـا، فأصبح أديبـاً نابغـا، روى الثعالبي عن أبي الحسـن المصيصي الشاعر قوله: لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء، وسـمعته يقـول: أنـا أحمد اللـه على العمـى، كما يحمـده غيري على

البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء.

وأشار ابن العديم إلى قوة حفظ أبي العلاء برواية حكاية عن ابن منقذ ذكر فيها أنه يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فيحفظهما، ولم يعلم له من شيوخ بعد سن العشرين، وذكر هو أنه لم يحتج إليهم بعدها[1].

إن فقد البصر لم يقعد به عن طريق المجد والتقدم، بل اكتشف موهبته في الحفظ ونماها، واستفاد من عشقه للعلم والمعرفة فنهل منها. وأصبح شخصية علمية أدبية عالمية.

ومن الأمثلة المعاصرة لأشخاص تجاوزوا إعاقتهم، وحلقوا في سماء العظمة والعبقرية، العالم البريطاني المعروف (استيفن هاوكنج) الذي يعد أبرز العلماء في الفيزياء والرياضيات، في النصف الثاني من القرن العشرين.. لقد أصيب بمرض وهو في السابعة من عمره، وصارع المرض حتى أصبح كسيحاً يتحرك على مقعد ذي عجلات، ولا يستطيع التكلم بشكل طلق ومفهوم، فلا تفهم له إلا سكرتيرته أو تلامذته القريبون، لكنه صار أستاذ الرياضيات العليا في جامعة (كامبردج) الشهيرة، وعيّن وعمره ٣٢ سنة في الجمعية العلمية الملكية البريطانية، وشغل فيها كرسي نيوتن، سنة ١٩٧٤م.

وقدم نظريات علمية عظيمة وجديدة حول الكون، وفي الفيزياء

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج٢٣، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، الرياض، ص٤٨٠.

والرياضيات، وله أبحاث كثيـرة مطبوعة، ترجم منها إلى اللغة العربية كتابه (تاريخ موجز الزمان).

مجتمعات تتحدى العوائق:

وعلـى صعيـد المجتمعـات، قـد يواجـه مجتمع مـا ظرفـاً قاهراً، تعـاق فيـه حركته، ويقع تحت سـيطرة مناوئـة، فإذا ما استسـلم وخنع فسـيعيش التخلف والذل، وإذا ما سـيطرت على أبنائـه حالة الاحباط والقنـوط فسـينكفئون علـى أنفسـهم، وتظهـر فـي أوسـاطهم تيارات العنف والتطرف، أما إذا شـمرّوا عن سـواعد الجد والنشاط، واهتموا ببناء كفاءاتهم، وصقل مواهبهم، واسـتثمار الفـرص المتاحة أمامهم، فسيفرضون أنفسهم على سـاحة الحياة، ويصنعون لمجتمعهم معادلة جديدة من القوة والتقدم.

ولعلّ الشـعب الياباني أفضل مثل يقدم فـي التاريخ المعاصر، فقد خرج هذا الشـعب مـن الحرب العالميـة الثانية سـنة ١٩٤٥م، منهزماً محطم القوى، بعد إصابته بالقنبلة الذرية في هيروشيما ونكازاكي.

وكانت خسـائرهم البشـرية تقـدر بمليونين وثمانين ألف إنسـان، وخسائرهم الاقتصادية تزيد على ٥٦٢ مليار دولار.

وحينمـا قـرر الامبراطـور اليابانـي وحكومتـه الاستسـلام انتحـر آلاف الضباط تألماً واحتجاجاً. وفرضت عليهم شـروط وجود قواعد أمريكيـة، وعدم عسـكرة اليابـان، وأن يكون جيشـهم بحجم حاجتهم

الداخلية.

لقد كان هذا الظرف قاهراً ومفروضاً عليهم، ولا يستطيعون مواجهته بالقوة، لكنهم لم يستسلموا لليأس والقنوط، ولم تسيطر عليهم حالة الإحباط، ولم ينشغلوا باجترار الغبن، والبكاء الدائم على مصائبهم، بل سارعوا بعد تسعة أشهر من انتهاء الحرب إلى تشكيل مجلس أعلى قرر البدء بالإصلاح الشامل، واتجهوا صوب التعليم، ونحو التصنيع التكنولوجي، وحفزوا الهمم في أنفسهم، واجتهدوا في تفجير كفاءاتهم ومواهبهم، وأسسوا مجالس منتخبة لتطوير المدارس واستيعاب أكبر قدر من الطلاب فكان من نتائج ذلك ما يلي:

- أصبح الطفل الياباني في الرابعة عشرة من عمره، يتلقى تعليماً لا يتلقاه الأمريكي إلا في الثامنة عشرة من عمره.
- وتبلغ أيام الدراسة في اليابان ٢٢٠ يوماً، بينما هي في أمريكا ١٨٠ يوماً.
- وبينما يحقق الطالب الأمريكي والأوروبي ١٠٠ نقطة في اختبارات الذكاء فإن الطالب الياباني يحقق ١١٧ نقطة.

أما على الصعيد الاقتصادي، فإن الدخل القومي لليابان سنة ١٩٥١م كان يعادل ثلث الدخل القومي لبريطانيا، ونصف دخل أمريكا، لكنه في سنة ١٩٩٠م أصبح بمقدار ثلثي دخل أمريكا وثلاثة أضعاف دخل بريطانيا!!

وأصبحت اليابان أغنى دولة في أصولها المالية والعقارية، حيث وصلت ثروتها في هذا المجال إلى ٤٣ تريليون دولار، بينما تقدر ثروة أمريكا في ذات المجال ٣٦ تريليون دولار.

وتعبيراً عن هذا التقدم الاقتصادي أصدر رئيس شركة سوني اليابانية كتاباً سنة ١٩٨٨م بعنوان (اليابان يمكن أن تقول «لا» للولايات المتحدة الأمريكية).

ومعروف أن معدل الأعمار في اليابان هو الأعلى عالمياً، حيث يصل إلى ٨٢ عاماً للنساء، و٧٦ عاماً للرجال، وفيها أكثر من ٤٠٠٠ شخص أعمارهم تزيد على ١٠٠ عام.

هكذا تكون الفاعلية أفضل طريق وأحسن خيار للالتفاف على العوائق، ولتحقيق تطلعات التقدم والرقي، على صعيد الفرد والمجتمع.

قلق الاختبارات

يعيش الطلاب والطالبات ومعهم أُسرهم، ما يشبه حالة الطوارئ، والظروف الاستثنائية، استعداداً لمواجهة الاختبارات في مراحل التعليم المختلفة. وذلك يعكس موقعية التعليم في حياة الإنسان المعاصر، حيث أصبح محدداً أساساً لقيمته الاجتماعية، ولتشكيل حياته المعيشية. ولأن الاختبار هو نقطة العبور من محطة تعليمية إلى أخرى، وهو بوابة التخرج إلى ميدان الحياة العامة، والتأهيل الوظيفي والعملي، ولأن معدّل الدرجات التي يحصدها الطالب، ومستوى الأداء في الاختبار يؤثر في تحديد المرحلة التالية، وفي مقدار ونوعية الخيارات والفرص المتاحة أمام الطالب المتخرج والطالبة المتخرجة، لكل ذلك من الطبيعي أن تواكب الاختبارات هذه الدرجة العالية من الاهتمام.

بين الاهتمام والقلق:

وإذا كان الاهتمام بالاختبارات مطلوباً، ليكون الطالب أفضل استعداداً وقدرة على الأداء، ولتقف الأسرة خلفه مشجعة ودافعة نحو المزيد من الجد والاجتهاد. فإن المبالغة في الاهتمام ليتحول إلى حالة من القلق العالي أمر مضر، ويؤدي إلى نتائج عكسية.

ويبدو أن الكثير من الطلاب والطالبات وعوائلهم في مختلف المجتمعات، يعانون من درجة عالية من القلق، تنتابهم في أوقات الاختبارات، وتخلّف العديد من الآثار والمضاعفات السلبية.

وقد اهتم الباحثون وخبراء علم النفس التربوي بهذه الظاهرة، ورصد نتائجها، وخاصة على صعيد مستوى الإنجاز الأكاديمي للطلاب.

فمنذ منتصف الخمسينيات من هذا القرن وحتى الآن، أُجريت العديد من الدراسات والبحوث، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حول موضوع قلق الاختبارات عند الطلاب، في كل المراحل التعليمية المختلفة. وحصلت دراسات قليلة محدودة حول ذات الموضوع في العالم العربي.

ووضع بعض الخبراء قياسات لتحديد درجة القلق من الاختبار، عبر طرق عديدة، ولعل استفتاءات التقرير الذاتي (self Report) هي أشهر تلك الطرق المستخدمة، وهناك مقياس قلق الاختبار Test

Anxiety Inventory من إعداد Spielberger وزملائه(1).

وتقدر الدراسات المختلفة في أمريكا وأوروبا أن حوالي ٢٠٪ من طلبة المدارس يعانون من قلق الاختبار، بدرجات متفاوتة، وأن ٢٠٪ من المتعلمين الذين كانوا يعانون من درجة عالية من قلق الاختبار، تسربوا من المدرسة، بسبب الفشل الأكاديمي(2). ويفترض أن هذه النسب تكون مرتفعة في العالم الثالث.

النتائج العكسية:

إن ما يطمح إليه الطالب هو تجاوز الاختبار بنجاح، وتحقيق معدل متقدم، وهو ما تتمناه له أُسرته، والإخفاق في تحقيق هذا الطموح هو ما يوجب القلق والخوف، إن الدرجة المقبولة من القلق هي التي تبعث على المزيد من الجد والاجتهاد، والتهيؤ والاستعداد.

لكن شدة القلق التي تعتبر حالة سلبية مرضية، تؤدي إلى نتيجة عكسية، وتوقع الطالب فيما يحذر منه، وتفوّت عليه فرصة النجاح والتقدم. لأنها تحدث عنده حالة انفعالية مصحوبة بتوتر وتحفز، وحدة انفعال، وانشغالات عقلية سالبة، تفقده القدرة على التركيز

---

(١) الطواب: سيد محمود، قلق الامتحان والذكاء والمستوى الدراسي وعلاقتها بالتحصيل الأكاديمي، ص١٦١، مجلة العلوم الاجتماعية ـ جامعة الكويت، المجلد العشرون، العدد الثالث / الرابع ١٩٩٢م.

(٢) قسم علم النفس التربوي ـ جامعة اليرموك: قلق الاختبار والأفكار العقلانية واللاعقلانية، مجلة علم النفس، العدد ٢٦، السنة السابعة ١٩٩٢م.

المطلوب في المذاكرة وأثناء الاختبار.

إن القلق الشديد ينبعث من ضعف الثقة بالنفس، حيث يشكك في قدرته على استيعاب المادة، أو استذكار المعلومة عند الحاجة إليها. كما تغذيه بعض الأفكار الوسواسية، والهواجس التشاؤمية، التي تجعل الطالب أمام شبح الفشل المرعب، والمصير القاتم المجهول.

وكم من طالب يكون استيعابه للمادة جيداً، وحافظته للمعلومات يقظة، وقدرته على الاستعادة والاستذكار مناسبة، لكن ارتفاع درجة القلق لديه، وانشغاله بالهواجس والمخاوف، يصيبه بنوع من الإرباك والاضطراب، فتتشتت أفكاره، وتفلت المعلومات من بين يديه، ويتردد في اختيار الإجابات، وبالتالي يكون أداؤه ضعيفاً سيئاً.

إن الطالب نفسه لو أتاح لنفسه فرصة الاطمئنان والارتياح النفسي، ولو سيطر على حالة القلق والخوف لديه، لوجد في قدراته وإمكاناته الخير الكثير، ولو واجهته الأسئلة التي تعثّر أمامها في موقف الاختبار، ضمن حالة طبيعة، لما رأى صعوبة في تقديم الإجابات الصحيحة عنها. لكن سيطرة الحالة السلبية عليه أعاقته عن حسن الأداء والإنجاز.

وكما يتحدث علماء النفس، فإن الإنسان حينما تواجهه مهمة ما، يحتاج إلى تركيز انتباهه، وتوجيه طاقاته نحو أدائها، وأن يتمحور اهتمامه بالأمر المطلوب ذاته، لكن حالة القلق العالي تنتج لديه استجابات غير مرتبطة بالمهمة المطلوبة، وغالباً ما تكون مركزة حول

الـذات. فمثلاً الطالب في موقف الاختبار، يحتـاج إلى تركيز اهتمامه وذهنه حول الأسـئلة المثارة أمامه، لكن الإفراط في القلق يشغل ذهن الطالب، بما يدور في أحاسيسه ومشاعره، فقد يجد نفسه مستغرقاً في التفكيـر حـول ما سـيترتب على فشـله وضعف أدائه، وكيف سـيكون موقفه أمام أهله أو زملائه؟

وهنـاك دراسـات علميـة ميدانية كثيـرة، وخاصة فـي المجتمعات الغربيـة، اهتمت ببيان العلاقة بين قلق الاختبـار والإنجاز الفعلي عند الطـلاب، وأكـدت الارتبـاط بين مسـتويات القلـق العالـي للاختبار، وانخفاض مستوى الأداء الأكاديمي عند الطلاب، حيث توصلت إلى أن الطـلاب الذين يعانـون من القلق العالي للاختبـار، يحصلون غالباً علـى تقديـرات أقل في هـذه الاختبـارات، مقارنة بالطـلاب الآخرين ذوي القلق المنخفض.

وتشـير نتائج عدد من الدراسـات في هذا المجـال، إلى أن الأفراد الذيـن يعانـون من درجـة عالية مـن قلق الاختبـار، يقضـون كثيراً من وقتهم قبل وخلال الاختبار وهم:

١. منزعجون حول أدائهم ويفكرون في أداء الآخرين.
٢. يفكـرون في الخيارات الأخرى التـي يمكن اللجوء إليها في حالة فشلهم في الاختبار.
٣. تنتابهم بشكل متكرر مشاعر العجز وعدم الكفاية.

٤. يتوقعون العقاب وفقدان الاحترام والتقدير.

٥. تنتابهم ردود فعل واضطراب فسيولوجية مختلفة.

وينتج عـن هذا كله نوبات من الاضطـراب أو الهيجان الانفعالي، الأمر الـذي يعيق التركيز والانتباه لمهمة الإجابة عن أسـئلة الاختبار، ويؤدي بالتالي إلى ضعف الأداء.

الثقة والاطمئنان:

الثقة بالنفس والاطمئنان هي أهم قوة يتسلح بها الطالب في موقف الاختبـار، فهـي التي تمكنه من اسـتيعاب موادّ دراسـته عنـد المذاكرة والمراجعة، وهي التي تركز انتباهه على ما يواجهه من أسئلة الاختبار، وتعطيه الفرصة لاسـترجاع المعلومات واستذكارها بشكل منظم وفق الحاجة إليها.

أمـا كيـف يتوفّـر الطالـب على هـذه الصفـة؟ وكيف يمتلـك هذه القوة؟ فإن عوامل عديدة لها دور في بناء الشـخصية على أسـاس الثقة والاطمئنـان، منهـا: التربيـة العائليـة السـليمة، ومنها الثقافـة والوعي الصحيح، الذي يخلق عند الإنسـان منهجية التعامل والتصرف السليم في مختلف الظروف والأزمات.

وهـذا ما تؤكده القيـم والمفاهيم الدينية التي تجعل الإنسـان على صلـة دائمة بـالله سـبحانه وتعالى، هـذه الصلـة تشيع في النفس الثقة والاطمئنـان ﴿الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِـنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْـرِ اللَّـهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

وذكر الله هنا يعني تلك المنظومة من القيم والمفاهيم التي يؤمن بها الإنسان المسلم، وينظر من خلالها إلى الحياة والأمور، فيكون موضوعياً في تفكيره، منطقياً في حساباته، متحملاً لواجباته ومسؤولياته، دارئاً عن نفسه المخاوف والقلق بالتوكل على الله، والثقة به وبما رزقه الله من قدرات وإمكانيات ذاتية عظيمة. ويقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2] والقول الثابت هو منهجية التفكير الصحيح، ونمط السلوك السليم.

من ناحية أخرى، فإن استعداد الطالب وتهيئه للاختبار، باهتمامه الدراسي طوال العام، ومراجعته الدقيقة لكل مادة يذهب لاختبارها، يجعله على بصيرة من أمره، واثقاً من نفسه. إن مشكلة بعض الطلاب والطالبات هي التساهل في دروسهم، وعدم الاجتهاد في استيعابها أثناء الدراسة، والتسويف في المذاكرة، فيداهمهم الاختبار، وهم على غير أهبة كافية، فيضغطون على أنفسهم في وقت محدود قصير قبل الاختبار، وذلك من أهم أسباب الإصابة بحالة القلق الشديد.

ويمكن القول هنا إن حالة الطالب في موقف الاختبار، تعكس مجمل علاقته مع المدرسة والتعليم، فالطالب الجادّ المجدّ، يستقبل

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٢) سورة إبراهيم: الآية٢٧.

الاختبـار بثقـة واطمئنان غالبـاً، ويتعامل معـه ضمن حالتـه الطبيعية، ووضعـه الاعتيـادي، مـع درجة مـن التركيـز والاهتمام. أمـا الطالب الضعيـف في جديتـه واجتهاده، أو الذي يعاني من مشـاكل في علاقته مع المدرسة والتعليم، فإنه يجد نفسه في سباق مع الزمن للمذاكرة في آخر الوقت، فيدخل قاعة الاختبار وهو غير متأكد من استيعابه للمادة، مما يجعله فريسة سهلة للقلق والاضطراب.

كمـا أن للظروف الحياتية التي يعيشـها الطالب أيـام الاختبار دوراً في اسـتقرار حالته النفسـية، فالسـهر ليلة الاختبار وقلة النوم، وارتباك البرنامـج الغذائـي، قد يؤثر على قـدرة التركيز الذهني، ويسـاعد على رفع مستوى القلق والتوتر النفسي.

دور العائلة:

ينبغـي أن تسـاعد العائلة أبناءها طلاباً وطالبـات في تجاوز مرحلة الاختبـار بثقـة ونجـاح، وذلـك بالاهتمـام المسـبق الدائـم بوضعهم الدراسـي، فليس صحيحاً أن تغفل العائلة عن متابعة الوضع التعليمي لأبنائها، ثم تبالغ في الاهتمام فجأة عند الاختبار.

وللعائلـة دور أسـاس فـي زرع الثقة فـي نفس الطالـب ـ الطالبة، وترشـيد حالة القلق لتكـون ضمن الوضع الطبيعـي الإيجابي، وتوفير الأجواء المساعدة له على المراجعة الكافية لدروسه، وتشجيعه ليكون أكثر ثقة واطمئناناً.

وتخطئ بعض العوائل حينما تبالغ في الضغط على الأولاد فترة الاختبارات، وتواصل تحذيرهم من الرسوب، وتتوعدهم على الإخفاق، فتزيدهم قلقاً واضطراباً، وتسبب لهم أضراراً تطاول أعماق نفوسهم وتكوين شخصياتهم.

إن مستويات الذكاء تختلف من طالب إلى آخر، وليس التفوق وإحراز أرفع الدرجات أمراً متوقعاً من كل طالب، كما أن الرغبة في التعليم متفاوتة أيضاً بين الطلاب، فيجب أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار. ولا يجوز استخدام أساليب القمع والقسوة مع الولد إذا كان قاصراً في استيعابه، أو مقصراً في اجتهاده، إلا بمقدار التوعية والتنبيه والتأديب، ضمن الحدود المعقولة، بما لا يتجاهل إنسانيته وحقوقه، ولا يدفعه إلى ردات فعل خطأ منحرفة، تضر بحياته الشخصية، وارتباطه العائلي.

المدرسة والمعلم:

المدرسة هي جهة الاتصال المباشر مع الطالب في الشأن التعليمي، وكما هي معنية بالمستوى العلمي الدراسي، فهي مؤثرة في الجانب التربوي النفسي، فمهمتها تربوية تعليمية، لذلك تطلق كثير من الدول على الوزارة المعنية بالتعليم عنوان وزارة التربية والتعليم.

والجانب التربوي هو أرضية التعليم، وهدف أساس له، واهتمام المدرسة بالتربية يخدم الإنجاز التعليمي. ومن أجل ذلك يجب أن

تسعى المدرسة لإقامة أفضل العلاقات مع طلابها، لينجذبوا إليها نفسياً، ويرتبطوا بها عاطفياً، عبر تعامل المدرسين الأبوي مع الطلاب. فالمعلم بمثابة أب للطالب، أو أخ أكبر له، وكذلك المعلمة عليها أن تشعر بالأمومة لطالباتها، والصداقة لهن، وأحوج ما يكون الطلاب إلى رعاية معلميهم هو في وقت الاختبارات.

إن هدف الاختبارات هو التأكد من استيعاب الطالب للمادة العلمية التي درسها، واهتمامه بمراجعتها، فالأسئلة التي توضع للاختبار تكون لخدمة هذا الهدف. ولا ينبغي أن يتبارى المعلمون، ويزايدوا على بعضهم بعضاً، في التشديد وتصعيب الأسئلة، وصياغتها كألغاز وأحاجي، أو بطريقة تعجيزية، أو إلجاء الطلاب إلى الانهماك في حفظ النصوص والمعلومات، مع أن المطلوب في العملية التعليمية هو الفهم والاستيعاب بالدرجة الأولى.

وفي الاستعداد للاختبارات، يكون لتوجيهات المعلم وإرشاداته دور كبير في صنع الحالة النفسية للطلاب، فهو الذي يشجعهم على الاهتمام الإيجابي، وينمي فيهم روح الثقة، وأجواء الاطمئنان، وينزع عنهم هالة الرعب والقلق.

وخطأ ما يقوم به بعض المدرسين، من التهويل والتهديد لطلابهم قرب الاختبارات، وهم يقصدون بذلك دفعهم أكثر للاهتمام، لكن الأسلوب الخطأ غالباً ما يعطي نتيجة خطأ.

وفـي قاعـة الاختبار يجـب أن تتجلى رعايـة المعلـم وحنوه على الطالب، فهو في لحظة حساسة، يحتاج فيها إلى العون والدعم، الذي يوفر له الاطمئنان والاستقرار، ويشيع في نفسه روح الثقة، فيصبح أكثر ارتياحـاً وتركيزاً. والعون الذي نقصده مـن المعلم هو الخلق الطيب، والتعامل الهادئ، والتشجيع ورفع المعنويات.

إن بعـض المعلمين يدخل على الطلاب في قاعة الاختبار كضابط عسـكري، أو كمحقـق يواجـه متهمين، وذلـك بحجة تطبيـق القانون والتعليمات، فيتعامل بقسـوة وشـدة، ويسـيء الظن في أقل حركة من الطالـب، وينشـر أجواء الرعـب والخوف، وكل ذلـك مضر بمصلحة الطلاب، ومخالف لأساليب التربية الصحيحة، والتعليم السليم.

فتطبيـق القانـون والتعليمـات أمـر مطلـوب ولكـن بـروح طيبـة، وأخـلاق سـامية، وكلمـا توفـرت للطالـب في قاعـة الاختبـار أجواء الراحـة والاطمئنـان، كان أداؤه أفضـل، وإنجـازه أحسـن. لذلـك توصـي الدراسـات التربوية التعليمية بأن لا ترتبـط طريقة الاختبارات وإجراءاتها ونظمها بأساليب تبعث على الرهبة والخوف.

ونشير هنا إلى حاجة الطالبات بشكل خاص إلى حسن الرعاية وقت الاختبـار، فهنّ أكثـر عرضة لقلق الاختبار من الذكور، كما اسـتنتجت دراسات عديدة، ومشـاعرهن أرقّ وأرهف، لذلك تنشر الصحف كل عام، عن حالات من الإغماء والإعياء تقع في صفوف الطالبات، أثناء

الاختبارات، ويبدو أن إمكانية القسوة والشدة في التعامل مع الطالبات أكثر منها مع الطلاب، مما يغري بعض المعلمات بممارسة ذلك الأسلوب، وهو ظلم وانحراف عن أساليب التعليم والتربية السليمة.

الفصل الثالث

في العلاقة مع المجتمع

- النجاح في العلاقات الاجتماعية
- الوظيفة.. خدمة وأمانة
- المعلم.. أقدس مهنة وأخطر دور

النجاح في العلاقات الاجتماعية

يتعرّض الإنسـان من خلال علاقاته وتعامله مع الناس إلى امتحان دائم، فهو من جهة يواجه أمزجة مختلفة ونفسـيات متفاوته، ومن جهة أخرى يحتاج إلى التعامل والتعاطي الدائم معهم، ولكي يكون الإنسان ناجحاً في هذا التعامل ينبغي أن يمتلك صدراً منشرحاً ونفسية سمحة.

فالتعامـل مـع البشـر تختلـف قوانينه عـن التعامل مـع الطبيعة، إذ قوانيـن الطبيعـة ثابتـة بينمـا البشـر أمزجة مختلفـة، وعقـول متفاوتة، ومصالح شـتى، وأكثـر من ذلك أن مـزاج الفرد الواحـد لا يكون ثابتاً دائمـاً بل يتقلـب بتقلب الظروف والأجواء التي تحيـط به، مما يضفي على الصعوبة الموجودة أصلاً صعوبة أخرى، فقد تلتقي شـخصاً يوماً مـا فيكون فيه سـعيداً فرحاً مسـروراً، ثـم تلتقيه يوماً آخـر فتجده على عكس ذلك تماماً.

وليـس صحيحـاً أن يلقي الإنسـان باللائمة في مشـكلات التعامل

على الآخرين، فيُعدُّ نفسه بريئاً من كل نقص، أو يرى أن النقص والعيب في الآخرين فقط.. فيقول إن الناس لا يفهمونه ولا يقدرونه، وإنهم غير جديرين بالاحترام والتقدير، وإنهم لو كانوا كذا لكان تعامله معهم أفضل، ولو كانوا مثل فلان وفلان، لكنت ناجحاً معهم.

والواقع أن الناس لا يمكن أن يكونوا كما يتمنى أي شخص ويريد، فهل يتصور هذا أن الله يخلق الخلق حسب مزاجه ورغبته هو، وهل الناس لباس تفصله على ذوقك حتى تلبسه؟ أم أثاث تريد أن تستعمله فتعطي قياسه للنجار فيصنعه لك. إن الناس هم الناس.. في كل مكان تذهب إليه وسيبقون كذلك.

ولم يحقق الله لأحد من خلقه، حتى من أنبيائه ورسله، أن يخلق له أناساً من صفات معيّنه حتى ينجح في تعامله معهم.

فكيف ينجح الإنسان في تعامله مع الناس رغم اختلاف نفسياتهم، هذا ما تجيب عنه الآية ٦٣ من سورة الفرقان حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾.

حيث تؤكد الآية أن ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الذين يخضعون لأوامره ونواهيه، يتصفون بصفة هامة تساعد في إنجاح علاقتهم مع الآخرين وتأثيرهم عليهم، وهذه الصفة هي أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ فلا يمشون بخيلاء وتكبّر وتجبّر، وأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم بتميز

عن الآخرين ولا يشعرون بأنهم أرقى من بقية الناس.

وهـذه النفسـية المتكبرة لا يمكـن أن تنجح في التعامـل مع الغير، لأن أهـم أسـس النجـاح أن يكون الإنسـان قـادراً على التسـامي على ردات الفعـل، ومتمكنـاً من ضبط النفس أمام كل إثـارة وتهييج، وأنى للمتكبر أن يصل إلى هذا المستوى.

ثم تقـول الآية الكريمـة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلاماً﴾ والجاهلـون ليسـوا بالضرورة طبقة الأميين أو غيـر المتعلمين بل قد يكونون أناسـاً متعلمين وعلماء متخصصين، غير أنهم جهّال في كيفية التعامـل مـع غيرهـم، وهم ليسـوا بالضرورة صغـاراً في السـن بل قد يكونون كباراً في السن إلا أن تصرفاتهم طفولية.

فالذيـن هـم من عبـاد الرحمـن المطيعيـن لا يسـتجيبون لإثارات الجاهلين بل يكون ردهم كما تؤكد الآية ﴿سَلاماً﴾.

وسلاماً هنا تعني الوداع، أي إن هذا وقت الإفتراق بيننا، أي اننا لن نستجيب لكم في الوقوف عند كل تصرف جاهل تقومون به، بل سنمر بـه مرور الكرام، كما تشـير إلى ذلك آية أخرى حيـث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿)وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[1]. فليس يليق بشأنهم أن يردُّوا على كل تصرف جاهل، بل هم أرفع وأعلى وهم منصرفون إلى مهماتهم وأعمالهم الطيبة الأساسية لا ينشغلون عنها بالترهات والخصومات الجانبية.

وهذه هي الصفة التي تميزت بها الشخصيات الناجحة في التعامل مع الآخرين.

ويعطي لنا الإمام علي بن الحسين رضي الله عنه أنموذجاً لتلك الشخصية فقد حدث (أن لئيماً اعتدى عليه فسبَّه، فأشاح بوجهه عنه، فانتفخت أوداج اللئيم وراح يقول له: إياك أعني. وأسرع الإمام قائلاً: «وعنك أغضي..» وتركه الإمام وانصرف)[2].

(وخرج من المسجد ذات مرة فسّبه رجل فأسرع إليه الناس للإنتقام منه فنهاهم عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: «ماستره الله عنك أكثر، ألك حاجة نُعينُك عليها؟» وخجل الرجل ووَدَّ أن الأرض قد ساخت به، ولما نظر إليه الامام أشفق عليه فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم)[3].

هذا في حين أنك تجد بعض الناس يتفاعلون حتى مع الكلام الذي

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٥.
(٢) القرشي: باقر شريف، الإمام زين العابدين، ج١، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الأضواء)، ص٧٧.
(٣) المصدر السابق.

ينقل إليهم عن الآخرين رغم أن النقل قد لا يكون دقيقاً.

وينقل عن الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني ﵀، أنه كان آية في تعامله حتى مع المناوئين له وكان يهتم خصوصاً بمبادلتهم الإساءة بالحسنى..

وذات مرة دخل عليه أحد الخطباء المعروفين ممن كانوا يعارضون الشيخ الآخوند في تزعمه لحركة المشروطة التي تطالب الملك القاجاري في إيران بوضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس للشورى، وكان ذلك الخطيب ينتمي الى مجموعة أخرى كانت تسمى بالمستبدة، تطالب بأن يبقى الوضع كما هو خوفاً من دخول القوانين غير الاسلامية في الدستور أو نفوذ رجال من خارج الوسط الديني في مجلس الشورى، ولوجود حالة الخلاف هذه فكثيراً ما تناول ذلك الخطيب من على منبره الشيخ الآخوند بالنقد والتجريح على موقفه وشاء القضاء أن يحتاج هذا الخطيب أن يبيع بيته حتى يسدّد ديناً عليه فقال له المشتري: إذا وقع الآخوند على سند بيتك أشتريه وإلا فلا..

فجاء الى النجف. والتقى الشيخ الآخوند.. احترمه الشيخ كثيراً وأجلسه في صدر المجلس وعبر له عن سروره بلقائه، فقال الخطيب: أرجو أن توقع هذا السند لأستطيع أن أبيع بيتي، فأخذ الشيخ السند ثم بعد فترة قام الشيخ وأخرج من خزانتة عدة أكياس من الليرات، ودفعها الى الخطيب وقال: أنت من أهل العلم وأنا لا أرضى أبداً

بضغـط الحاجـة على أهل العلم، خـذ هذا المبلـغ وأدَّ ديونك ولا تبع بيتك فتشرد عائلتك. فخجل الخطيب من تصرف الشيخ ولكنه أصبح بعد ذلك من أنصار الشيخ ومحبيه[1].

الأقربون أولى:

ومهمـا كانـت الحاجـة إلى ممارسـة هـذا الخلق مع الناس ماسـة وشديدة إلاّ أن التعامل بها مع المحيط القريب من الإنسان أهم وأكبر. فالعفـو والصفح له قيمة عظيمة إذا مارسـته مع الأبعدين، ولكن قيمته تزداد حينما يمارس وسـط العائلة والأسرة والدائرة الأقرب للإنسان، مـع الوالدين الكبيريـن، ومع الزوجـة والأبناء، مع الفقـراء والضعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة.

ذلـك أن القـوي قد يندفع الإنسـان للتنازل معـه بدافع من الخوف والهيبة وتجنباً للمشـاكل، أما الضعيـف الذي لا يملك حولاً ولا قوة، فـإن التنـازل له لا يحركـه الخوف، بل رغبـة للثواب والأجـر من الله وانطلاقاً من طيب الذات والمعدن.

أما بعض الناس، ونحن نسـمع أحياناً شـيئاً من هـذه القصص، إذا أخطأ في حقهم بعض إخوانهم فإنهم يكشـرون عـن أنيابهم فينتقمون منهـم بشراسـة. وإذا تجـاوز عليهـم أنـاس غربـاء عنهـم أو أقوياء في

(١) مختاري: الشيخ رضى، سيماء الصالحين، ترجمة الشيخ حسين الكوراني، ١٩٩٢م، (بيروت: دار البلاغة)، ص٢٧٨.

مراكزهم، فإنهم يخنعون ويركعون ويدفنون رؤوسهم في الرمال.. ثم لا يفتأ يكرر عليك كلمات الصبر والتحمل (ما عليه، بسيطة، ما يخالف، نتحملها، شدة وتزول)، وبذلك يكونون مصداقاً لقول الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر

وليت شعري، أين كانت هذه الكلمات حينما أخطأ في حقك أخوك في النسب أو الايمان، ولماذا حسبت ثورتك هناك استرداداً لعزتك وكرامتك التي تصورت أنها انتهكت وأهينت، أما هنا فتحولت إلى صابر محتسب، فأين منك إذاً قول الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

إن طريق الفرد، والمجتمع للنجاح في تحدي العلاقة مع الآخرين يمر حتماً بهذه المقدمة وما لم يكن الإنسان قادراً على التحكم في ردَّات فعله على تصرفات الغير، فإنه لن يكون ناجحاً في تعامله، ولنا في سيرة النبي وأهل بيته خير أسوة وقدوة، ولنستفيد من سيرة العظماء الذين بلغوا أعلى المناصب لكنهم تغلبوا على حس الانتقام فهذا يوسف الصديق يخاطب إخوته حينما دخلوا عليه مصر وهو ملك عليها، بعد أن أساءوا في حقه كثيراً، حسدوه وألقوه في غيابة

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

الجـب، ثم بيع كعبد في مصر، وتعرض للسـجن والاتهـام، لكنه كان أسمى وأكبر من الانتقام والحقد، بل خاطبهم: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

إن سـعة الصـدر، صفـة ضرورية للنجـاح في الحيـاة الاجتماعية، ولتجاوز مشاكل التعاطي والتعامل مع الآخرين من القريبين والبعيدين، وهي تجعل نفس الإنسـان في راحة من التفاعل مع إساءات الآخرين، كما توفر على أعصاب الإنسـان ومشـاعره حالة الاضطراب والتشنج الناتج من ردات الفعل على الاستفزازات المعادية.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

الوظيفة.. خدمة وأمانة

لا بـدّ لإدارة شـؤون المجتمـع من جهـاز وظيفي، فـأي قائد مهما كانت قدراته وكفاءاته لا يستطيع إدارة الأمور بجهده وطاقته الشخصية المباشـرة، وأي إدارة لعمـل واسـع متشـعب تحتـاج إلـى الاسـتعانة بموظفين.

والجهـاز الوظيفـي مهم وحسـاس لأنه يشـكل القناة بيـن الحاكم والنـاس، فعبره تصل أمـور الناس وقضاياهم إلى الحاكم، وبواسـطته تنفـذّ الأنظمـة والقوانين، فـإذا كان الجهـاز الوظيفي صالحـاً ويعمل بشـكل سليم، انتظمت أمور الناس وفق النظام والقانون، أما إذا أصابه الفسـاد والخلـل، فسـتضطرب أمـور العباد والبـلاد، وتتعثـر الأنظمة والقوانيـن، ولـن يغني صـلاح الحاكـم ولا يعوّض عن فسـاد الجهاز الإداري.

حسن الاختيار:

ومن أجل أن يؤدي الجهاز الإداري والتنفيذي دوره على أحسن وجه، لا بد من حسن الاختيار وخاصة لذوي المراتب المتقدمة، والمناصب العليا، وتركز النصوص الدينية على صفتين رئيستين يجب أن تتوفرا في الموظف المسؤول: صفة الأمانة وصفة الكفاءة. والأمانة تعني أن يحافظ على الإمكانات التي تكون تحت يده فلا يُصرف شيء منها إلا في موارده المقررة، وأن لا يسيء استخدام موقعه وصلاحياته تبعاً لرغباته وميوله، وتنفيذاً لمآربه الشخصية وانتماءاته.

والكفاءة تعني الجدارة والأهلية للمسؤولية الملقاة على عاتقه، يقول تعالى عن لسان نبيه يوسف حينما رشّح نفسه لإدارة الاقتصاد في مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١].

لقد وصف نفسه بصفتين عَدَّهما مبرراً لأهليته وصلاحيته للمنصب: أنه حفيظ أي أمين مؤتمن يحفظ ما يكون تحت يده من ثروات وإمكانيات، وعليم أي صاحب معرفة وكفاءة تمكنه من تحمّل المسؤولية وأداء المهمة.

وفي مورد آخر ينقل القرآن الكريم عن ابنة نبي الله شعيب، حينما اقترحت على أبيها توظيف نبي الله موسى للقيام بأمور خدمتهم، فركّزت على صفتين رأتهما في شخصية تؤهلانه للوظيفة، يقول

---

(١) سورة يوسف: الآية٥٥.

تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ـ وفي نسخة اختيارا ـ ولا تولهم محاباة وأثرة»[2].

إن إعطاء الوظائف للمحسوبيات والمحاباة على حساب النزاهة والكفاءة لهو سبب من أهم أسباب الفساد والخلل في الأجهزة الوظيفية والإدارية في أية مؤسسة من المؤسسات.

الرقابة والإشراف:

حينما يستلم الإنسان وظيفة من الوظائف، ويجد نفسه صاحب أمر ونهي ضمن صلاحيات منصبه، ويرى تحت تصرفه إمكانيات وسلطات، فسيكون أمام امتحان حقيقي، ينجح فيه الصالحون الواعون الذين يخافون ربهم، ويخشون حسابه وعقابه، بينما يتساقط في هذا الامتحان أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يحسبون المنصب والوظيفة فرصة ومجالا لإشباع رغباتهم ونزواتهم، ولتحقيق مطامعهم، وتصفية حساباتهم مع الآخرين من خلال الموقع الذي تسلقوه.

---

(١) سورة القصص: الآية٢٦.
(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم٥٣.

وقبل أيام نقلت الصحف خبراً يُعَدُّ عيّنة لما تعاني منه بلدان كثيرة من الفساد الإداري وسوء استخدام الوظيفة، وهو أن أحد كبار مسؤولي الشرطة في بومباي (الهند)، عمد إلى إقفال مطعم صيني فخم اعتاد الأكل فيه مجاناً من دون أن يدفع. وكان سبب الإقفال أن مسؤول الأمن طلب حجز طاولة، إلا أن صاحب المطعم اعتذر لأن كل الطاولات محجوزة، فما كان منه إلا أن أرسل قوة أقفلته لتأخره لمدة ربع ساعة بعد الموعد المحدد للإقفال وهو الواحدة والنصف فجراً[١].

وقد يكون هذا الإنسان الموظف صالحاً في بداية الأمر، لكن إغراءات المنصب، والفرص المتاحة أمامه قد تغريه، ويسوّل له الشيطان طريق الفساد، وإساءة استخدام الوظيفة، ويُلحظ أن بعض الأشخاص تطرأ على شخصيته تغييرات في سلوكه وأخلاقه بعد أن يتبوأ موقعاً أو منصباً رفيعاً. كما يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٢].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «الولايات مضامير الرجال»[٣].

في مواجهة هذه الاحتمالات الواردة لا بد من رقابة وإشراف على سير أعمال الموظفين، وسلوكهم في ممارسة مهامهم، ووجود الرقابة

(١) الحياة: الصادرة بتاريخ ٢١ جمادى الثاني ١٤٢١هـ الموافق ١٩ سبتمبر ٢٠٠٠م، ص٦.
(٢) سورة العلق: الآية ٦-٧.
(٣) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم ٤٤١.

يشكل رادعا عن الانحراف، كما تُكتشف عبرها كثير من الأخطاء والمفاسد والثغرات.

ويروى عن الإمام علي بن موسى الرضا ﴿عليه السلام﴾ قوله: «أنه كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إذا بعث جيشاً فأمَّهم أمير بعث معه من ثقاته من يتجسس له خبره»[1].

وفي عهده لمالك الأشتر يوصي الإمام علي ﴿عليه السلام﴾ برقابة العمال والموظفين فيقول: «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ـ العمال ـ فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة»[2]. وعرف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رقابته الشديدة على الولاة ومحاسبته الصارمة على أخطائهم وتعدياتهم.

وفي كتاب (الخراج) أشار أبو يوسف القاضي إلى ضرورة هذا الأمر فقال: «وأنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا في البلاد... وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف وخيانة لك في

(١) السبحاني: الشيخ جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٤م (بيروت: دار الأضواء)، ص٦٠٢.
(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم٥٣.

رعيتك... فحرام عليك استعماله»[1].

وقد تبلورت هذه الرقابة في تاريخ الدولة الإسلامية، وتحولت إلى مؤسسة تحمل عنوان ولاية المظالم أو ديوان المظالم، لتقوم بدور الإشراف والرقابة على موظفي الدولة وتقويم سلوكهم وممارساتهم الإدارية.

وفي العصر الحديث اعتمدت الدول الغربية هذا الاسلوب المؤسسي في الرقابة والإشراف منذ قيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر بعنوان مجلس الدولة، وأطلقت عليه بعض الدول «القضاء الإداري» أي بعد أكثر من ألف سنة على قيامه في الدولة الإسلامية.

كما تؤدي الصحافة ووسائل الإعلام الحرة دوراً أساساً في تلك الدول لملاحقة الأخطاء والمفاسد الإدارية.

الموظف وتحدي المسؤولية:

للرقابة الإدارية، والإشراف الدقيق، دور في تقليص مفاسد الجهاز الوظيفي، لكن فرص الانفلات من تلك الرقابة، أو الالتفاف عليها، ليس معدوماً أمام من تسوّل له نفسه خيانة الأمانة، والتلاعب بالمسؤولية، لذلك تشكو مختلف دول العالم اليوم من مشاكل الفساد الإداري، وأصبح يشكل ظاهرة عالمية.

(١) السبحاني: جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ص٦٠٤.

تقول دراسة لمؤسسة «أرنست أنديونغ» للمحاسبة في لندن، حول موضـوع الاحتيال على الشـركات الدولية الكبرى: إنـه يرتكب أربعة أعمال احتيال من كل خمسة على الشركات أشخاص يعملون في هذه الشركات، وغالباً ما يكونون موضع ثقة، وخدموا فترة طويلة. وجاءت الدراسـة على شـركات تعمل في (١١) دولة، وشـملت (١٧) قطاعاً، وأكـدت أن الاحتيال يكشـف صدفة، وليس عن طريـق أنظمة الضبط والتحكم المعمول بها.

كمـا جاء في تقرير نشـر فـي أمريكا بتاريـخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٥م أنه تبلـغ خسـائر سـرقة الوقت من قبـل العامليـن والموظفين فـي أمريكا (١٧٠) مليار دولار سـنوياً، وبمعدل تسـع سـاعات أسـبوعياً من كل عامل وموظف، ويتسـاوى الرجال والنساء في معدل السرقة من وقت العمل.

لذلك فإن من أفضل وسـائل مواجهة هذه المشـكلة إيقاظ الشعور بالمسـؤولية في الموظـف ذاته، بحيث يدرك أن الوظيفة أمانة شـرعية ووطنيـة في عنقه، وأن أي خيانة أو تفريط فهو محاسـب عليه أمام الله تعالى، ويشكل أضراراً بمصلحة وطنه ومجتمعه.

فمـن الناحية الشـرعية يُعَـدُّ الموظـف ملتزماً بعقد يـؤدي بموجبه عمـلاً معينـاً ليسـتحق عليه أجـرة محددة، وهـو مؤتمن علـى مصالح وإمكانـات يتحمّل مسـؤولية الحفاظ عليها واسـتخدامها في مواردها

المقررة بحسب نظام العمل.

إن التقصير في القيام بمهام الوظيفة والعمل بسبب الكسل وحب الراحة، والانشغال بالأمور الشخصية في وقت العمل هو حرام شرعاً لما فيه من تفويت لمصالح الناس، حيث يعاني الكثير من المواطنين من مماطلة بعض الموظفين وتأخير إنجاز معاملاتهم، وإيذائهم بتكرار مراجعاتهم للدوائر، مع إمكان إنهاء المعاملة فوراً بوقت أقصر وأسرع.

وإلى جانب حرمة تفويت مصالح الناس وإيذائهم، فإن هناك إشكالاً شرعياً فيما يستلمه من راتب وأجر مقابل هذا الوقت المضاع، إن كل يوم من أيام العمل وكل ساعة من ساعاته، يتغيّب فيها العامل أو يهدرها دون عذر مشروع، فإن المبلغ الذي يقابل ذلك الوقت من راتبه لا يحل له شرعاً.

وقد قُدِّم للإمام السيد أبو القاسم الخوئي ﵀ الاستفتاء التالي:

هل يجوز للعامل أو الموظف في الدائر الحكومية أن يتغيّب بصورة عذر كاذبة أو بدون ذلك في أيام بعض المناسبات الدينية؟

فأجاب: **إذا كان خلاف النظام، ويأخذ مع ذلك راتب وظيفته فلا يجوز**[1].

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات، ج٢، ص٣٠٠، مسألة رقم٩٤٢.

كما سئل المرجع الديني السيد علي السيستاني عن حكم تأخر الموظف أو المدرس عن الدوام بفارق ١٥ دقيقة أو ٣٠ دقيقة فأجاب (حفظه الله):

لا يجوز له ذلك ولا يستحق الراتب المقرر له بمقدار ما تخلّف عن أداء وظيفته[١].

كما أجاب عن سؤال حول مخالفة النظام الإداري بما يلي:

لا يجوز للموظف المذكور كغيره من الموظفين التخلف عن الأنظمة التي التزم بتطبيقها بموجب عقد توظيفه ما لم تشتمل على محرّم[٢].

وتشدد التعاليم الإسلامية على النزاهة والأمانة تجاه الإمكانيات المرتبطة ببيت المال وثروة الشعب والوطن، فلا يجوز للموظف أن يستخدم شيئاً منها لمصالحه الشخصية خارج النظام والقانون.

وقد سئل المرجع الديني السيد محمد الشيرازي رحمه الله: عن استخدام الموظف الحكومي أو الأهلي للهاتف التابع لعمله لأغراضه الخاصة؟

فأجاب ناهياً: **لا يفعل ذلك**[٣].

---

(١) السيستاني: السيد علي، أجوبة المسائل الدينية، مكتب سماحته بدمشق، ص٦٤، مسألة١١٠.
(٢) المصدر السابق: مسألة ١١١.
(٣) الحائري: الشيخ جعفر، أجوبة المسائل الشرعية، ص١١٣، مسألة ٤٠١.

هكذا يربي الإسـلام أبناءه علـى احترام المصالـح العامة، والوفاء بالتعهدات، والأمانة في أعمالهم ووظائفهم.

فالوظيفة في منطق الإسـلام ليسـت مـورداً للكسـب والربح فقط وإنما هي قبل ذلك أمانة ومسؤولية. كما يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه لواليـه على أذربيجان أشـعث بن قيس: «وأن عملـك ليس لك بطعمه ولكنه في عنقك أمانة»[١].

الموظف وأخلاق التعامل:

يـرى بعض الموظفين نفسـه في موضـع قوة وقـدرة، وأن مصالح وقضايـا للنـاس مرتبطـة بقـراره وتوقيعه وعملـه، مما قد يخلـق لديه شـعوراً بالتعالـي علـى النـاس، واسـتغلال حاجتهم له ضمـن واجبه الوظيفي، ويحصل في أحيان كثيرة أن يطبق الموظف القانون بتعسّف وصلافة تجرح مشاعر الناس، وتسيء إلى كرامتهم وحقوقهم.

وينتـج ذلك إما مـن وجود عقد نفسـية عند الموظـف، أو لعصبية انتمـاء قبلـي أو مذهبـي، أو لتصفية حسـابات أخرى بينـه وبين بعض المراجعين، أو ما أشبه ذلك.

إنـه في هذه الحالة يسـيء إلـى الجهة التـي ائتمنته علـى الوظيفة، ويخون مصالحها، كما يحمّل نفسه الوزر والإثم من قبل الله تعالى.

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم٥.

وقد ركز الإمام علي عليه السلام على جانب التعامل مع الناس من قبل موظفي الدولة ومسئولي الأجهزة الحكومية في عهده لمالك الأشتر حينما ولاه مصر، حيث كتب له قائلا: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سَبُعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[1]. وفي كلامه إشارة مهمة إلى احترام الجانب الإنساني للمواطنين وإن اختلف الانتماء الديني.

إن الناس بطبيعتهم يستثقلون القوانين والأنظمة بشكل عام، وإن كانت ضرورية لتنظيم الأمور، فإذا ما أضاف الموظف بسوء أخلاقه عليهم ثقلاً آخر، فإن ذلك يحدث في نفوسهم السخط والنقمة، وينفّرهم من النظام والقانون.

الإتقان والإخلاص في العمل:

وكمواطنين يهمنا أن تتقدم بلداننا، وأن تنتظم شؤون حياتنا وتتطور إلى الأفضل، فإن كل واحد منا يتحمّل جزءاً من المسؤولية في إنجاز هذا الهدف المهم. إن التخلف والمشاكل تحصل بسبب اجتماع وتراكم حالات الإهمال والتسيب والتقصير، فغياب موظف هنا، ومماطلة آخر هناك، وتقصير مسؤول في هذا الموقع، ومحاباة آخر في ذلك الموقع.. من مجموع هذه الممارسات والنواقص يحصل

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب رقم٥٣.

الخلل، وتتأثر مصالح الوطن والمواطنين.

إن أخطاءً قد تحصل في مؤسسـات صحية عامة أو خاصة، بسـبب الإهمـال والتقصيـر، فتذهـب ضحيتهـا أرواح مواطنيـن أعـزاء، أو إصابتهم بإعاقات وأمراض خطيرة.

وإن تخلفـاً وتدنيـاً فـي مسـتويات بعض الطـلاب ممـا يؤثر على مستقبلهم الدراسي قد ينتج عن تساهل وتقصير من بعض المدرسين، أو الإداريين في المؤسسات التعليمية.

وإن تعثراً في حركة التصنيع والإنتاج، أو سـوءً وتخلفاً في صفات منتجات متداولة تضر بالناس، قد يكون بسبب خلل وإهمال في تطبيق القوانين والأنظمة من قبل الموظفين المعنيين.

وهكـذا فـإن حياة المواطنيـن وصحتهم ومسـتقبل أبنائهم وحركة إنتاجهـم ومختلـف شـؤونهم.. وسـيادة القانـون والنظام فـي البلاد، كل ذلـك يرتبـط بمدى إتقـان الموظفيـن لأعمالهم الموكولـة إليهم، وإخلاصهم في أدائها.

إن أوطاننـا وثرواتنا ومسـتقبلنا أمانة في أيدينا جميعا فلنتق الله في أنفسنا ومجتمعنا وبلادنا، وإن التدين الصحيح يجب أن يظهر أثره في أداء الأمانة والقيام بالواجبات والمهام في خدمة المصلحة العامة.

المعلم.. أقدس مهنة وأخطر دور

إذا كانت المهن والوظائف تتفاوت في قيمتها تبعاً لتفاوت مدى تأثيرها في المجتمع الإنساني، فإنه يمكن اعتبار التعليم من أهم المهن والوظائف خطورة وقداسة، وقد سبق أن أعلنت منظمة اليونسكو عند إقرارها لليوم العالمي للمعلم ـ الخامس من أكتوبر كل عام ـ أن المعلم صاحب أهم مهنة في العالم.

وقبل ذلك قال أحمد شوقي في قصيدته الخالدة:

أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشئ أنفساً وعقولا

صحيح أن قضية التعليم ترتبط بأطراف عديدة، ولها أبعاد وجوانب مختلفة، بدءاً من السياسات والخطط، والمناهج والمقررات، إلى استعداد الطالب وجدّيته، ودور العائلة واهتمامها، ومروراً بمستوى الإدارة والخدمات والأجواء المدرسية، وتأثيرات المحيط الاجتماعي. إلا أن المعلم يحتل موقع المحور الأساس والعنصر

الرئيس في العملية التعليمية.

فالمعلم الجاد المخلص يمكنه المساعدة في سدّ الثغرات، ومعالجة النواقص، وتجسير الهوّة بين المستلزمات المطلوبة والإمكانيات المتاحة، بينما تعجز أفضل الوسائل وأرقى الإمكانيات عن تحقيق النجاح والتقدم على يد معلم فاشل.

بين المهنة والرسالة:

قد ينظر البعض إلى التدريس بأنه مهنة ومصدرٌ للرزق، حيث يتمتع المدرس براتب مناسب، ويحظى بإجازة سنوية مريحة.. لكن ما يجب التأكيد عليه هو خطورة المسؤولية التي يتحملها المدرس.

فهو المؤتمن على مستقبل أبناء المجتمع، وهو الجهة التي يوكل إليها تشكيل عقل الجيل الصاعد، وصياغة نفسيته، وتفجير قدراته وكفاءاته.

إن المهمة الملقاة على عاتق المعلم هي تأهيل هؤلاء الطلاب ليكونوا أعضاء فاعلين وصالحين في مجتمعهم، ومساعدتهم للنجاح في حياتهم. وإن تقصير المعلم في أداء هذه المسؤولية، يهدد بظهور جيل ناقص الأهلية، ضعيف القدرات، قاصر عن مواكبة تطورات الحياة.

وأفراد هذا الجيل الذين سيمثلون غداً على مقاعد الدراسة أمام

المعلمين، هم مجتمع الغد، وسيصبحون بعد فترة من الزمن جزءاً من المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه المعلم، ويتعاطى ويتفاعل معه.

فأحد هؤلاء الطلاب سيكون مسؤولاً في إدارة يرتبط بها شأن من شؤونك أيها المعلم، وأحدهم قد يصبح صهراً لك بزواجه من ابنتك أو أختك أو إحدى قريباتك، وأحدهم سيكون مدرساً ومعلماً لابنك، وأحدهم قد يصبح زميلاً لولدك ورفيقاً له. ففي أي مستوى تريد أن يكون مسؤولو الأجهزة والإدارات الحكومية في بلدك؟ وما هو السلوك والسيرة التي ترجوها من صهرك وزوج ابنتك؟ وماذا تتوقع من المعلّم الذي يدرس ابنك؟ وما نمط الشخصية التي تحبّذ صداقتها لولدك؟

ضع هذه الصورة أمامك وتعامل مع طلابك على هذا الأساس، واعلم أن منهجية تعاطيك معهم الآن ستؤثر إلى حد كبير في تشكيل شخصياتهم، وصنع مستوياتهم المستقبلية.

الإخلاص وإتقان العمل:

إن أول وأبرز ما يطلب من المعلم ويتوقع منه: أداء مهمته التعليمية بشكل متقن صحيح، فهناك منهج مقرر، ومادة دراسية، يجب شرحها وتبيينها للطلاب حتى يفهموها ويستوعبوها، ولأن مواد التعليم حلقات متسلسلة متواصلة، فإن ضعف استيعاب الطالب في أي نقطة منها، ينعكس على فهمه للفقرات المترتبة عليها.

ومـع ملاحظة تفاوت مسـتوى الذكاء والاسـتيعاب عند الطلاب، وكون بعض المواد الدراسـية فيها شيء من الدقة والصعوبة بطبيعتها، ومع ما يثار من إشكاليات ونقود على العديد من المناهج والمقررات، فـإن كل ذلك يضاعف مسـؤولية المعلم لكي يبـذل أقصى ما لديه من جهد وطاقة، في توضيح المادة للطلاب، وتقريبها لأذهانهم وأفهامهم.

وذلك يستلزم من المدرس ما يلي:

١. الإعـداد والتحضيـر الجيِّـد للـدرس، فلا يصـح للمدرس أن يعتمد على معرفته المسـبقة بالمادة، وأن يقدم درسـه بشـكل روتينـي، وكـدور مهني يؤديه، غير مهتم بعـد ذلك بمدى فهم الطلاب واستيعابهم للدرس.

بل على المدرس أن يعتصر ذهنه، ويصرف جزءاً من وقته قبل الدرس للتفكير في أفضل طريقة لطرح المادة المقررة.

٢. الاجتهـاد في الشـرح والتبيين ومراعاة متوسـطي المسـتوى، والتأكـد مـن وضـوح الفكـرة لجميـع الطـلاب، بالاسـتعانة بمختلف وسـائل الإيضاح من كتابة ورسوم وصور وحركات وما أشبه.

٣. اسـتثارة فكر وعقل الطالب، بتحريضه على المناقشـة، ودفعه للتساؤل، وإدارة الحوار بين الطلاب أنفسهم حول الموضوع، وتدريبهـم علـى النقـد والتفكيـر العلمـي، لأن الاعتماد على

الحفظ والتلقين طريقة كسولة غير صحيحة، تخلق حالة من التبلّد الذهني، وتئد قدرات الإبداع والابتكار.

٤. تشويق الطلاب وترغيبهم في المادة الدراسية، بأن يكون الطرح حيوياً، فيه تجديد وطراوة، وأن يتحدث لهم عن الموضوع بأسلوب يثير رغبتهم وشوقهم لمعرفته ومتابعة تفاصيله.

إن كثيراً من العلماء والنابغين في مختلف حقول المعرفة، يتحدثون عن دور معلميهم في انشدادهم وانجذابهم نحو المادة التي نبغوا وتفوقوا فيها. وسمعت من بعض الطلاب كراهيتهم لبعض المواد الدراسية، بسبب طريقة مدرسيهم في عرضها وطرحها.

٥. الاهتمام بحالات الضعف والنقص عند أي طالب، والتعرف إلى أسبابها وجذورها، وتلّمس طرق المعالجة والإصلاح، لمساعدة الطالب على تجاوز تلك الحالة.

الدور التربوي:

إلى جانب الأسرة، فإن المدرسة هي المؤسسة التي تحتضن أبناء المجتمع منذ السنوات الأولى لتفتق وعيهم وإدراكهم، وتحتويهم في فترة مراهقتهم.

ويقضي الطالب في المدرسة نصف نهاره كل يوم، وهو في حالة تلقي واستقبال نفسي وذهني، وينظر إلى المعلم باعتباره جهة مؤثرة

عليه يرتبط به تدريسه وعلاماته ونجاحه.

وذلك يعني إمكانية القيام بدور تربوي أساس من قبل المعلم تجاه طلابه، فإلى جانب مهمته التعليمية يقع على عاتقه دور تربوي إرشادي، من هنا تطلق أكثر الدول عنوان وزارة التربية والتعليم على المؤسسة التعليمية، فالتربية أولاً والتعليم ثانياً.

وهذا ما سلكه القرآن الكريم عند الحديث عن وظائف النبي محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1] فالتزكية قبل التعليم وأهم من التعليم.

وفي هذا العصر نعرف جميعاً مدى الحاجة الملّحة لتربية الأبناء وتهذيب نفوسهم وتشذيب سلوكهم، حيث تتعرض القيم الدينية والاجتماعية للاهتزاز، ويعاني المجتمع من خطر انفلات أبنائه الناشئين، بسبب حالة الانفتاح الإعلامي والثقافي، الذي يبث ويروّج لأنماط من الحياة والسلوك تخالف النظام القيمي في مجتمعاتنا، ويحرّض على التسيب والميوعة والانحلال، وحيث تعصف بجيل الشباب شتى الأزمات والمشاكل الواقعية والمفتعلة.

فأين هو دور المعلم في خضم هذه الظروف والأجواء الحساسة الخطيرة؟

---

(١) سورة الجمعة: الآية٢.

إن الشعور بالمسؤولية الدينية والاجتماعية يجب أن يدفع المعلم لاستنفار كل طاقاته وقدراته، واستثمار موقعيته للإسهام في تربية هذا الجيل، الذي تحدق به الأخطار من كل جهة وجانب.

وإذا كان الإسلام يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجاهل، وهداية الآخرين، فإن المعلم هو في أفضل موقعية تتيح له ممارسة هذا الدور، وأداء هذا الواجب العظيم.

١. فهو بشخصيته وسلوكه يجب أن يكون أنموذجاً وقدوة طيبة لتلامذته. فإذا ما ظهر عليه الالتزام بالدين، وحسن الخلق والسلوك، وطيب التعامل والاحترام، فإن ذلك يغرس في نفوسهم هذه المواصفات، ويدفعهم إلى تقمصها بداعي المحاكاة والاقتراب.

ومما يثير القلق حقاً كون بعض المعلمين يعانون من نواقص في شخصياتهم وسلوكياتهم، ومؤهلهم للتعليم لا يعدو شهادة التخرج، دون خبرة أو نضج، وهذه الشريحة من المدرسين تشكل مصدر خطر على شخصيات وسلوك الطلاب. لكنها شريحة محدودة ويمكن تلافي تأثيراتها السيئة بوعي الإدارة وسائر المدرسين.

٢. أن يغتنم الفرص لتوجيه الطلاب وإرشادهم عبر مادة الدرس، أو بالتعليق على حدث ما أو مناسبة ما، وباستخدام أفضل

الأساليب المؤثرة كالقصص والأمثلة والنكت الهادفة.

ولدينا مقررات المواد الدينية والأدبية يمكن أن تستثمر في التربية والإرشاد، شرط اجتهاد المدرس في طرحها بشكل حيوي جذّاب، يلامس هموم الطلاب وتطلعاتهم ويقترب من أجواء حياتهم وقضاياهم.

وكل المواد الأخرى أيضاً تعطي للأستاذ أكثر من فرصة ومجال لتأكيد القيم الصالحة، والنزعات الخيّرة في نفوس طلابه.

٣. تشجيع الطلاب ودفعهم نحو الأجواء النافعة والبرامج المفيدة، فتشويقهم للمطالعة والقراءة، والذهاب إلى المساجد ومجالس العلماء والأدباء، والانخراط في سلك الجمعيات الخيرية والأندية واللجان الاجتماعية، ولا سيَّما للطلاب في المراحل الدراسية المتقدمة، كل ذلك يساعد في تحقيق الأهداف التربوية المرجوة.

الرعاية النفسية:

ما أحوج الطالب في سنوات دراسته الأولى، وفي فترة مراهقته، إلى رعاية الأستاذ، إنه في هاتين المرحلتين يعيش رهافة في مشاعره، وتحفزاً في أحاسيسه وعوطفه، فإذا ما لقي رعاية وعناية من الأجواء المحيطة به، والجهات التي ترتبط بها شؤونه وقضاياه، وفي طليعتها

بعد الوالدين المعلم، فإنه سينعم بالاطمئنان والاستقرار النفسي، مما يمكنه من تجاوز هذه الفترة الحساسة بنجاح، وأن يشق طريقه إلى النضج وتكامل الشخصية بسلامة وأمان، وتنطبع نفسه بالثقة والمحبة والانسجام مع الآخرين.

أما إذا واجه الجفاء والجفاف والقسوة والتحدي، فسيكون رد فعله النفسي والسلوكي في أحد اتجاهين خطيرين: إما الانكسار وفقدان الثقة بالذات ونمو عقدة الحقارة، وإما الاندفاع نحو التمرد والانفلات.

إن بروز الأخطاء والهفوات من الطالب أمر طبيعي ومتوقع، في وظائفه الدراسية أو تصرفاته السلوكية، وهو يحتاج إلى الاحتواء والاستيعاب من قبل المدرس، بالتغاضي عن خطئه تارة، وبالموعظة الحسنة والتوجيه الرقيق تارة أخرى.

أما الانفعال الحاد، والغضب العارم، ومواجهة الطالب بروح التشفي والانتقام، فتلك طريقة محرمة خطأ، تكشف عن نوازع سيئة ونفسية مريضة معقدة.

وقد ينزعج الأستاذ من تقصير الطالب أو سوء تصرفاته، لكنه لا يصح أن يستخدم قوته وموقعيته في خوض صراع ومعركة مع تلميذه الضعيف في مقابله، كما يحصل من بعض الأساتذة حينما يبالغون في رد فعلهم تجاه المسيء من طلابهم، ويؤلّبون ويحرّضون المدرسين

الآخرين عليه، فإن تبادل الانطباعات والمواقف السلبية تجاه الطلاب منهج سيئ خطأ.

والأفضل لكل مدرس أن يخوض تجربته الخاصة في التعاطي مع التلامذة، دون التأثر بمواقف الآخرين.

وننبّه بشكل خاص على التعامل مع الطالبات من قبل مدرساتهن، فهذه الصبايا ذات المشاعر الحساسة المرهفة، تقع في بعض الأحيان في قبضة مدرسات عنيفات قاسيات، تنهال عليهن تجريحاً وإذلالاً لأتفه المبررات والأسباب.

إن ضمير الإنسان ووجدانه، وخوفه من الله تعالى يجب أن يردعه عن إساءة التعامل مع من أؤتمن عليهم، وأصبح مسؤولاً عنهم، وهو في موقع القوة والقدرة تجاههم.

صحيح أن هذا الطالب الضعيف أو تلك الطالبة المسكينة، لا يمتلكان قدرة على الردع أو المواجهة، لكن الله تعالى ينتصر لهما، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله»[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «ظلم الضعيف أفحش الظلم»[٢].

فالمأمول من المعلمين الأعزاء أن يضبطوا انفعالاتهم أمام

---

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، ج٣، ص٥٠٠، حديث رقم ٧٦٠٥.
(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب ٣١.

تصرفات الطلاب، ويتحلوا بالرفق والرحمة والعطف، ولا يستخدمون الحزم والصرامة إلا في المواقع الضرورية والمطلوبة. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليّنوا لمن تعلّمون»(١).

وعن حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «تواضعوا لمن تعلّمونه العلم»(٢).

إن رحابة الصدر وإبداء مشاعر الرعاية والرفق، قد يكون أفضل طريق لإصلاح أخطاء الطالب، ودفعه لتحسين أدائه الدراسي، وسلوكه الأخلاقي، مع أخذ الظروف النفسية والأجواء العائلية والاجتماعية التي يعيشها الطالب بعين الاعتبار.

وأخيراً: ليكن واضحاً أمام المعلم ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقه، وليعلم أنه بإخلاصه وأدائه لواجبه ينال عند الله سبحانه جزيل الأجر وعظيم الثواب، إنه في عمله الدراسي لا يمارس مهنة يكافئ عليها براتب شهري فقط، بل يقوم بعمل عبادي يقرّبه إلى الله تعالى ويؤهله لنيل مرضاته، ويقدم أجل وأعظم خدمة لمجتمعه ووطنه.

لذلك ليس غريباً أن يروى عن رسول الله ﷺ قوله:

«إن معلّم الخير يستغفر له دوابّ الأرض، وحيتان البحر، وكل ذي روح في الهواء، وجميع أهل الأرض والسماء»(٣).

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢، ص٦٢.
(٢) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج١، ص٣٦.
(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢، ص١٧.

المحتويات

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
هاتف: ٩٦٦١٣٨٥٥٥٢١٠+
فاكس: ٩٦٦١٣٨٥١٢٦٠٠+
الموقع على الإنترنت: www.saffar.org
البريد الألكتروني: office@saffar.org